مفهوم السنن الربانية

دراسة فى ضوء القرآن الكريم

تأليف

أ. د رمضان خميس زكي

مفهوم السنن الربانية

دراسة في

ضوء القرآن الكريم

أ.د. رمضان خميس زكي

بسم الله الرحمن الرحيم

" قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ"

[آل عمران: ١٣٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

m

أحمد الله رب العالمين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة وهداية للعالمين محمد r وعلى آله وأصحابه والتابعين.

اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا، ونلوذ بحولـك وطولـك وقوتك؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين.

اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل أقوالنا وأعمالنا فيك لك خالصة، إنك علـى كل شيء قدير.

وبعد:

فإن موضوع السنن الربانية من الأهمية بمكان، ورغم خطـورة إهماله وضرورة الحديث عنه إلا أنه لم يأخذ من تفكير المسلمين في القديم أو الحديث إلا النذر اليسير، فإذا كانت آيات القرآن الكريم ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين آية، وآيات الأحكام والمعاملات لا تزيد على خمسمائة آية، فإن المسلمين حصروا أنفسهم -إلا مـن رحـم الله- في هذا الجزء اليسير الذي لا يتجاوز ١٢/١ من مجموع آيات

القرآن الكريم، فدخلوا في فروع الفقه ومسـائله وفـروع فروعـه وتفصيلاته، في الوقت الذي يرون فيه أن القرآن الكريم لـم يتـرك مسألة من مسائل عمارة الأرض وإثارة خيرها والانتفاع بما فيها إلا ولمسها وتحدث عنها.

إن القرآن الكريم غني بالجوانب الحضارية التي تتكفل بأن تنشئ أمة وتحيي جيلا، وتقود الناس إلى طريق الله رب العـالمين، لكـن الأزمة ليست في غياب المنهج الذي يضبط ولكن في العقـل الـذي يدرك، والقلب الذي يعي، والجارحة التي تعمل وتنفذ.

-٢-

إن الجيل الرائد من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم سـاد الدنيا، وفتح البلاد وقاد العباد بأمر الله تعالى؛ لأنه اسـتوعب القـرآن الكريم استيعابا عمليا فكان يتعلم العلم والعمل معا، من هنا استطاع أن يؤسس حضارة ويبني فكرا وينشئ جيلا بل أجيالا، لكن عندما تراخت قبضة المسلمين عن مفاهيم دينهم أصبحوا لا يبرزون فـي دنيـا ولا يتعمقون في دين.

وصدق فيهم قول القائل:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

-٣-

وقد دفعني للكتابة في هذا الميدان غير واحد من الأمر، منها مـا لمسته في فكر علماء راسخين وأفذاذ عاملين -حسـبتهم كـذلك والله

حسيبهم- فقد كانت أطروحتي في التخصص حــول الشــيخ (محمــد الغزالي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن)، وكنت أرى بــين حــين وآخر حديثا منثورا عن قضية السنن وإهمال المسلمين لدراستها، فلفت نظري هذا الكلام الذي لم أكن قد سمعته من قبل، وغذى الفكرة فــي رأسي أحد شيوخي الأجلاء الذين كنت أتلقى العلم على أيديهم، فكــان يدفعنا دفعا إلى القراءة والكتابة في هذا الميدان الخصب، الذي يــؤتي أكله ويثمر ثمره للإسلام والمسلمين، وكنا وقتها نسمع هذا الكلام ولا نعي أرجاءه ولا ندرك مراميه كما يسمع عامي قراءة شيخ ماهر فــلا يدرك من القراءة إلا جمال النغم وحلاوة الأداء، حتى منَّ الله تعــالى علينا ويسر لنا سبيله فله الفضل والمنة.

- ٤ -

هذا وقد سميت هذه الدراسة (السنن الربانية.. دراسة في ضــوء القرآن الكريم)، وأعني بالسنن هنا (النظام الإلهي الذي يحكم ســلوك البشر في انضباط واطراد). وكلمة الربانية أقصد بها المنسوبة إلــى الرب سبحانه وتعالى؛ وذلك لغرض في نفسي أن نسبتها إلى الــرب يلحظ فيها ملمح التربية، فإن الله تعالى يربي عباده بهذه السنن الثابتــة والنواميس الصارمة. ورغم أنه قد شاع على بعض الألسنة لفظ السنن الإلهية فإنني رأيت أن كلمة الربانية هنا أوفق؛ لما يلمح فيهــا -كمــا قلت- من معنى التربية من جهة الله عز وجل.

وقد سبقني في هذا الميدان كتابات، من أهمهــا وأبرزهــا كتــاب

(السنن الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات والشعوب) للدكتور عبد الكريم زيدان -أكرمه الله- والكتاب على روعته وعظمته تناول عددا من السنن الربانية ولم يتعرض بتفصيل كاف للحـــديث عـــن الســـنن وطبيعتها وخصائصها وحجمها، وكيفية التعامل معها... إلى غير ذلك.

كذلك وجدت كتابات متناثرة هنا وهناك للأســـتاذ الإمـــام حكـــيم الإسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله.

كذلك وقعت - وأنا في المراحل الأخيرة من هذه الدراسة- علـــى كتاب (مدخل إلى دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم» فانتفعت به أيضًا.

كما وجدت في كتابات الأستاذ «مالك بن نبـــي» وتلميـــذه البـــار الأستاذ جودت سعيد غناءً وأي غناء بطريق مباشر وغير مباشر.

هذا وقد قسمت بحثي بعد المقدمة إلى أربعة فصول وخاتمة؛ أمـــا المقدمة فهي ذي، وأما الفصول فكانت على النحو التالي:

الفصل الأول: في الحديث عن مفهوم السنة الربانيـــة فـــي اللغـــة والقرآن والحديث النبوي الشريف، وقد جاء فـــي عـــدة مباحث:

المبحث الأول: السنن الربانية في لسان العرب.

المبحث الثاني: السنن الربانية في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: السنن الربانية في السنة النبوية المطهرة.

المبحث الرابع: أهمية دراسة السنن والآثار المترتبة على إهمالها.

والفصل الثاني: جاء في خصائص السنن الربانية، وقد جاء فـــي المباحث التالية:

المبحث الأول: خصائص السنن الربانية.

المبحث الثاني: حجية السنن الربانية.

المبحث الثالث: صيغ ورود السنن الربانية في القرآن الكريم.

المبحث الرابع: موارد السنن الربانية.

المبحث الخامس: صور التعبير عن السنن الربانية فـــي القــرآن الكريم.

والفصل الثالث: كان عن العلاقة بين الســـنن الكونيـــة والســـنن الربانية، وقد جاء في مبحثين:

المبحث الأول: خصائص السنن الكونية.

المبحث الثاني: التطابق بين السنن الكونية والسنن الربانيـــة فـــي القرآن الكريم.

والفصل الرابع: جاء في منهجية التعامل مع السنن الربانية، وقـــد شمل المباحث التالية:

المبحث الأول: الإنسان مهيأ لإدراك السنن الربانية.

المبحث الثاني: العلم بالسنن الكونية طريق إلـــى معرفـــة الســـنن الربانية.

المبحث الثالث: السنن الربانية من الفهم إلـــى التســخير، ومـــن الإدراك إلى التوظيف.

هذا وكلي أمل في أن يمد الله في عمري حتى أرى هـــذا المجـــال الخصب قد أترع بالأقلام الواعية والعقول الواعبة التي تسخر الكـــون وتوظفه، حتى يهتف الناس من جديد ها قد عاد المسلمون.

اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمـــدي، وكـــل ذلـــك عندي.

اللهم تقبله مني إنك أنت السميع العليم.

الفصل الأول

مفهوم السنن الربانية في لسان العرب والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

المبحث الأول

مفهوم السنن في لسان العرب

ترى كتب اللغة أن السنة تعني السيرة والطريقة، حسنة كانــت أو سيئة، مقبولة كانت أو مرذولة.[١] ويري ابن الأثير في كتابه (النهايــة في غريب الحديث والأثر) أن السنة تعني الطريقــة والســيرة؛ ففــي حديث المجوس: سنوا بهم سنة أهل الكتاب. أي خذوهم على طريقتهم، وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراهم.[٢]

والفيروز آبادي تلمس في بصائره الكلمة من نواحيهــا وطرقهــا طرقًا يقترب مما نريد الوصول إليه، فهو يــذكر أن (الأصــل فيهــا الطريقة والسيرة، ومنه قوله: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجــر من عمل بها إلى يوم القيامة» [٣] أي طرق طريقة حســنة ... وســنة

(١) انظر: لسان العرب، مادة سنن

(٢) انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر)، جـ ٢ صــ٤٠٩، بتصرف يسير.

(٣) البخاري، كتاب الجزية. وموطأ مالك، كتاب الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس.

النبي صلى الله عليه وسلم : طريقته التي كان يتحراها. وسنة الله قـد يقال لطريق حكمته وطريق طاعته، وقوله تعالى: " **فَلَن تَجِدَ لِسُـنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا**"[(١)] تنبيه (إلى) أن فروع الشرائع وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود فيها لا يتغيـر ولا يتبـدل... وسن الماء على وجهه: صبه صبًّا سهلا. وسن الحديدة حددها، وسنان ومسنون وسنين وسن سكينه بالمسن) [(٢)].

والناظر في كلام الفيروز آبادي -رحمه الله- يجده يلمس معنـى السنة من خلال اختيار النصوص وتتبع المادة، ولعل إشارته إلـى أن (فروع الشريعة وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود منها واحد لا يتغير ولا يتبدل)، وبنعته لكلمة سن من سنن الماء على وجهه، والسن بعض الرعي، كل هذا فيه ضبط دقيق من معنى اللفظة لسن بمعنـى الرعي، ففيه نوع من السير على نفس المرعي وبذات الطريقة جيئـة وذهابا، وهو نفس السيرة والطريقة. ووحدة الغرض المقصـود مـن الشرائع وإن اختلفت صورها نوع أيضا من اتحاد الهدف من السـنة التي تجري على اللاحقين كما جدت على السابقين.

والزمخشري في أساسه قد استوعب لفظ السنة وتقلباتها، فقال: سن سنة حسنة ولزم سنن الطريق: قصده. وسنن الفرس وهو عدوه إقبالا

---

(١) فاطر: ٤٣.

(٢) (بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز)، جـ٣ صـ٢٦٧، ٢٦٨، ط الثالثة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، تحقيق محمد علي النجار، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بتصرف واختيار.

وإدبارًا في نشاط وزعل، وسن إبله أحسن رعيها وصقلها كما يسن السيف. وسن الأمير رعيته: أحسن سياستها. وفرس مسنونة: متعهدة بحسن القيام عليها.. وجاء بالحديث على سننه على وجهه... واستنت الطرق: وضحت كل مذهب، ومنه قول القائل:

ولو شهدت مقامي بالحسام على   حد المسناة حيث استنت الطرق

واستن به الهوى حيث أراد: ذهب به كل مذهب، ومنه قول القائل:

دعاني إلى ما يشتهي فأجبته   أصبح بي يستن حيث يريد[(١)]

والذي يتأمل نص الزمخشري في الأساس يجد أن المادة وتقلباتها تدل على بعض صفات السنن وخصائصها من الوضوح والثبات والشمول والعموم. والتعهد وحسن المتابعة والرعاية والتكرار، وهذا من الملامح العامة للسنة الربانية، كما سنعرف ذلك -إن شاء الله- عند الحديث عن خصائص السنن الربانية.

وأما الراغب في مفرداته فيقول: سنة الوجه: طريقته، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها. وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته.. وقوله تعالى: "**مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**"[(٢)] قيل متغير، وقوله تعالى: "لم يتنسنه" [(٣)] معناه {لم يتغير}[(٤)]

(١) انظر: أساس البلاغة، جـ١ صـ٤٦٢ ـ ٤٦٣، مادة س ن ن، باختصار وتصرف.
(٢) الحجر: ٢٨.
(٣) البقرة: ٢٥٩.
(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن، صـ٣٥٦، ٣٥٧، مادة سن ن ن، باختبار. ط الأنجلو، بدون تاريخ.

وكلام الراغب الأصفهاني رغم اشتراكه مع جزء ليس باليسير مــن كــلام الفيروز آبادي والزمخشري، إلا أنه ألمح إلى صفة من صفات السنن وهي الثبات وعدم التغير كما سيتضح ذلك بعد.

وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يرى [أن السنة هي العــادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار]. [١] وكذلك يرى الإمام الرازي فــي تفســيره أن السنة هي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع[٢].

وقد أبدع صاحب المنار عندما ربط المادة اللغويــة لكلمــة ســنة بالمعنى الدلالي لها عندما قال: «إنها الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع، من قولهم: سن الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنه لتوالي أجزائه علــى نهــج واحد يكون كالشيء الواحد»[٣]. وأجاد وأفاد عندما ربط بين كلمة سنة التي نتحدث عنها و(السنة) المدونة؛ وهي فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله وتقريراته بقوله: (إن أهل الحق من سلف الأمــة إنمــا سموا بأهل السنة والجماعة لأنهم ساروا في الاهتداء بالإســلام علــى السنة، وهي الطريقة العملية التي جرى عليها النبي في بيان القــرآن كما أمره الله تعالى بقوله: " **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُــزِّلَ**

---

(١) انظر مجموع الفتاوى، جــ٣ / ٢٦٧، ٢٦٨.
(٢) انظر مفاتيح الغيب، ١١/٩.
(٣) انظر تفسير المنار، جــ٤ صـــ١١٥، بتصرف قليل.

إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"[1] وتلقاها عنه بالعمل جماعة من الصـــحابة... والأقوال وحدها لايتبين بها المراد بيانا قطعيـــا لا يحتمـــل التأويـــل كالأفعال وإن كانت في غاية الجلاء والوضوح، ولـــذلك قـــال علـــي المرتضي -كرم الله تعالى وجهه- لابن عباس -رضـــي الله تعـــالى عنهما- عندما أرسله لمجادلة الخوارج: احملهم على السنة. فإن مراده بالسنة ما ذكرناه من معناها الموافق للغـــة لا المعنـــى الاصـــطلاحي للمحدثين وسائر علماء الشرع الذي يشمل الأخبار القولية وغيرها] [2].

والخلاصة: أن السنة (هي القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتبًا على ســـلوك البشر).

***

---

(١) النحل: ٤٤.
(٢) انظر تفسير المنار، جـــ٨ صـــ٢٢٤، ٢٢٥، بتصرف واختصار.

المبحث الثاني

مفهوم السنن الربانية في القرآن الكريم

وردت لفظة سنة في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة، منها قــول الله -سبحانه وتعالى-: " **قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَــدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**"[1] وقد وردت هذه الآيــة الكريمة في سياق الحديث عن الكافرين وموقفهم من الإسلام، وإنفاقهم أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وأنهم سينفقونها وستكون عليهم حسرة ثم يغلبون، فأتت هذه الآية الكريمة لتبين لهم أنهم إن انتهــوا فــإن الله بحلمه وفضله ورحمته سيغفر لهم، وإن يعودوا لمــا درجــوا عليــه ويصدوا عن الإسلام بأفعالهم السابقة فقد خلت (سنة) الله تعــالى فــي الأمم الماضية، وسيجري عليهم ما جرى على من سبقهم للذين كفروا.

يقول إمام المفسرين الإمام الطبري عنــد تناولــه لهــذه الآيــة الكريمة: قل يا محمد لمشركي قومك: إن ينتهوا عمــا هــم عليــه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله وقتالك وقتال المؤمنين فينيبوا إلــى الإيمان يغفر الله لهم ما قد خلا ومضى من ذنــوبهم قبــل إيمــانهم وإنابتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم، وإن يعودوا لقتالك بعد الوقعة التي أوقعتها بهم يوم بدر فقد مضت ســنتي فــي

---

(١) الأنفال: ٣٨.

الأولين منهم ببدر ومن غيرهم من القرون الخالية؛ إذ طغوا وكذبوا رسلي ولم يقبلوا نصحهم من إحلال عاجل النقم بهم، فأحل بهــؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك مثل الذي أحللت بهم(١).

ويقول الإمام محمد عبده - رحمه الله-: " **وَإِنْ يَعُودُوا**" أي إلـــى العداء والصد والقتال. " **فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**": أي تجري علـــيهم سنته المطردة في أمثالهم من الأولين الذين عادوا وقـــاتلوهم.. وهـــي السنة التي عبر الله عنها بمثل قوله: "**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُـــولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**"(٢) وقوله: " **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُـــومُ الأَشْهَادُ**"(٣) فإضافة السنة إلى الأولين لملابستها لهم وجريانها عليهم(٤) وفي ذلك نوع من لفت أنظار المعاندين إلى أن السنة الماضية والقانون الحاكم لخلق الله -عز وجل- أجري على الناس جميعًا دون مجاملـــة ولا محاباة «فإن سنة الله في الأولين لا تتخلف، ولقد مضت ســـنة الله تعالى أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والبيان وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين، وهذه السنة ماضية لا تتخلـــف، وللـــذين كفـــروا أن

---

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل أي القرآن م الســـادس، جـــــ٩، ط دار الريـــان للتـــراث، ١٤٠٧هـــ/ ١٩٨٧م، بتصرف يسير. وانظر قريبًا من هذا المعنى في تفســـير الكشـــاف، جـــ٢ صـــ٢٥٦، للإمام الزمخشري، مكتبة مصر. ومحاسن التأويل، جـــ٥ صـــــــ٢٩٢، ط دار الكتب العلمية للإمام القاسمي.
(٢) المجادلة: ٢٠-٢١.
(٣) غافر: ٥١.
(٤) انظر تفسير المنار، جـــ٩ صـــ٥٥٢.

يختاروا وهم على مفترق الطرق»[1].

ومن الآيات الكريمة التي وردت فيها لفظ سنة قوله تعـالى فـي سورة الحجر: " **وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ**"[2] والآيات الكريمة تتحدث عن صورة من صور الصراع بـين الحـق والباطل، ولون من جدل أهل الباطل مع الحق وحزبه، فدلت الآيـات الكريمة على أن هؤلاء المعاندين الرافضين لا يؤمنون ولـن تشـرب قلوبهم روح التصديق وقد كذبوا؛ إذ إنهـم رأوا الآيـات واضـحات والدلالات بينات ومع ذلك رفضوا الإيمان وعاندوه.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في سورة الإسراء: " **وَإِن كَادُواليَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا**"[3]. والآية الكريمة وردت في سياق الحديث عن الصراع أيضًا بين الحق والباطل، وموقف هؤلاء المعاندين من الدعوة والداعية والرسالة والرسول، ورغبتهم في أن يخرجوه من الأرض التي يدعو فيها إلى الله عز وجل، وموقف صاحب الدعوة والرسالة بقدرته المطلقة وعزته وحكمته من هؤلاء في أنهم لا يخلفون الرسول لو أخرجوه من

(١) انظر: في ظلال القرآن، جـ٣ صـ١٥٠٨، ط الشروق، ط الرابعة، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
(٢) الحجر: ١٣-١٥.
(٣) الإسراء: ٧٦-٧٧.

الأرض، ورد الفعل هذا ليس خاصا بالرسول r وحده بل هو قانون مطرد وسنة ماضية لا تتحول ولا تتبدل.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في سورة الكهف: " **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِـي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُـبُلا * وَمَـا نُرْسِـلُ الْمُرْسَـلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِـهِ الْحَـقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّـهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُـوبِهِمْ أَكِنَّـةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَـدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلا * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّـا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**"(١).

وكما هو واضح من سياق الآيات الكريمة أنها تتحدث عن جـدل الإنسان المفرط الذي أصبح به موسومًا، فهم ممتنعون عـن الإيمـان والارتكان إلى الله -عز وجل- إلا إذا أتتهم السنة الماضية في الأمـم التي سبقتهم أو يروا العذاب رأي العين، ثم توضح الآيات الكريمة أن وظيفة الرسل هي البشارة والنذارة، وأن جدل هؤلاء المجادلين لـيس طلبًا للحق ولا بحثًا عن الرشد وإنما يجادلون ليدحضوا بجدالهم الحق،

(١) الإسراء: ٥٤-٥٩.

بدليل أنهم لو كانوا طلاب حقيقة لانتفعوا من الآيات والإنـــذار الـــذي أتاهم ولم يتخذوا ذلك كله هزوا أو سخرية.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: "**مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَـــرَجٍ فِيمَـــا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْــرُ اللهِ قَــدَرًا مَّقْدُورًا**"(١). والسنة في هذه الآية الكريمة تعني الحكم النافــذ والقــدر المحتوم، والآية واردة في سياق الحديث عن زواج الرسول من زينب بنت جحش -رضي الله عنها- وأن أمر الله -سبحانه وتعالى- لرسوله بذلك ليس نقصًا له ولا حطًّا من قدره.. يقول ابن كثير -رحمــه الله- عندما تناول الآية الكريمة: أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد (على) من تــوهم من المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قــد تبناه. «وكان أمر الله قدرًا مقدورًا»: أي وكان أمره الذي يقدره كائنًــا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن) (٢). وقد ورد لفظ السنة كذلك في نفس السورة الكريمــة وهــي تعالج سدور المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة، وتهددهم بأن يغري الله تعالى بهم رسوله فلا يجاورون في المدينة إلا قليلا، وذلك في قوله تعالى: " **لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَــافِقُونَ وَالَّــذِينَ فِــي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَــكَ**

(١) الأحزاب: ٣٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، جـ٣ صـ٤٩٢، ط عيسى البابي الحلبي. وانظر في هــذا المعنى الظلال جـ٥ صـ٢٨٧٠.

فِيهَا إِلاَّ قَلِيلا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا * سُـــنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا"[1].

والآيات الكريمة توضح أن أخذ الله تعالى لهم ومعاقبته إياهم إذا لم ينتهوا نافذ نفاذ القانون الثابت والقدر المقدور، ويجري علـــيهم كمـــا جرى على من قبلهم (فهذه سنته تعالى في المنافقين إذا مردوا علـــى نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه؛ أن أهل الإيمـــان يســـلطون عليهم ويقهرونهم. " **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا**": أي وسنة الله في ذلك لا تتبدل ولا تتغير[2] فهي سنة نافذة وقـــانون مطـــرد لا يتخلـــف ولا يتحول، وإذا كان ابن كثير[3] يعبر عن السنة في هذه الآيات الكريمـــة بالعقوبة فإني أرى أنه يقصد بها مآلها؛ أي المنتهى والمصـــير الـــذي تصير إليه عاقبة هؤلاء، فيصابون بعقوبة الأمم التي كذبت من قبـــل ومآل الكلام واحد وليس معناها هنا العقوبة إلا من ناحية مـــآل هـــذه السنة إلى العقوبة «فالأمور لا تمضي في الناس جزافًـــا، والحيـــاة لا تجري في الأرض عبثًا، فهناك نواميس ثابتـــة تتحقـــق لا تتبـــدل ولا تتحول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ويعلمها للنـــاس كـــي لا ينظـــروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غـــافلين عـــن ســـننها الأصـــلية محصورين في فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود مـــن المكـــان، ويدفع تصورهم لارتباطات الحياة وسنن الوجود فيوجههم دائمًا إلـــى

(١)الأحزاب: ٦٠-٦٢.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، جـــ٣ صـــ٥١٩ بتصرف يسير.
(٣) انظر معنى السنة في الآيات الكريمة عند ابن كثير في جـــ٣ صـــ٥٦٣.

ثبات السنن واطراد النواميس ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم، ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس، وهذه الجولة الخامسة (التي يلفت فيها الله تعالى أنظار الناس إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين من قبلهم وقد كانوا أشد منهم قوة) نموذج من نماذج هذا التوجيه بعد تقدير الحقيقة الكلية من أن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول " **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**"(١).

والسير في الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ، والوقوف على مصارع الغابرين وآثار الذاهبين، وإيقاظ القلوب من الغفلة التي تسدر فيها فلا تقف، وإذا وقفت لا تحس، وإذا أحست لا تعتبر، وينشأ عن هذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الكلية، وهي الميزة التي تميز بها الإنسان المدرك من الحيوان البهيم الذي يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات لا رابط لها ولا قاعدة تحكمها، والجنس البشري كله وحدة أمام وحدة السنن والنواميس (٢) " **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**"(٣).

---

(١) فاطر: ٤٤.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، جـ٥ صـ٢٩٤٩ - ٢٩٥٠، بتصرف وترتيب.
(٣) فاطر: ٤٤.

وقد ورد في سورة غافر كذلك لفظ (سنة)؛ وذلك في قوله تعالى: **"أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِــن قَــبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَــنْهُم مَّــا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّــا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَــدْ خَلَــتْ فِــي عِبَــادِهِ وَخَسِــرَ هُنَالِــكَ الْكَافِرُونَ"**[1].

وهذا النجم من نجوم القرآن الكريم والطائفة المتماسكة التي تسعى إلى هدف واضح من بدايات الآية الآمرة بالســير فــي الأرض إلــى نهايات الآية العارضة لسنة الله تعالى في كونه وخلقه تتحدث جميعها عن قضية واحدة، تمهد أوائلها لأواخرها وتصدق أواخرها أوائلها في تناغم واتساق؛ فالآيات الكريمة **تدعو في** بداياتها هؤلاء المعرضــين المعاندين إلى السير والنظر في عاقبة الذين كانوا من قبلهم، وقد كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارًا في الأرض، ومع ذلك لم يغن عــنهم مــا كانوا يكسبون؛ ذلك أنهم ما آمنوا برسلهم الذين أتوا لإخــراجهم مــن الظلمات إلى النور، بل فرحوا بما عندهم من العلم فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فعندما عاينوا وقوع العذاب بهم قالوا آمنا بــالله وحــده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم تكن لتقبل توبتهم ولا لتقال عثــرتهم؛

---

(١) غافر: ٨٢-٨٥.

لأنها سنة الله التي مضت في عباده، وحكمه في جميع من تـــاب بعـــد معاينة العذاب أنه لا تقبل توبته بل يحيق به مكره (ولا يحيق المكـــر السيئ إلا بأهله) (وخسر هنالك الكافرون).

ووردت لفظة سنة كذلك في سورة الفتح السورة المدنية في صدد الحديث عن الصراع بين الحق والباطل، وذلك في قوله تعالى: " **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا**"(١).

فهذا التبشير من الله تعالى لأهل بيعة الرضوان بالظفر والنصـــر المستمر لصدق إيمانهم وإخلاصهم في ثباتهم وإيثـــارهم مرضـــاة الله ورسوله على كل محبوب. «ولو قاتلكم»: أي بعد هذا الفتح والنصـــر المعجل لولُّوكم أعجازهم في الحرب فعل المنهزم، ولا يجـــدون مـــن يواليهم على حربكم وينصرهم عليكم، وكذلك مضت سنة الله في كفار الأمم السالفة مع مؤمنيها، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تغييرًا» (٢).

وكذلك وردت اللفظة في سورة آل عمران في قوله تعالى: " **قَـــدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَـــانَ عَاقِبَـــةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**

(١) الفتح: ٢٢-٢٣.
(٢) انظر: تفسير القاسمي (محاسن التأويل)، جـــ٨ صـــ٥٠٠، ٥٠١.

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِـيُمَحِّصَ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ"[1].

والآيات الكريمة كما هو واضح من سياقها تدور حول الحديث عن التداول الحضاري والسنة الماضية في إصابة كل من الفريقين، حتى ينقي الله تعالى صف المؤمنين ويدحر فلول الكافرين، وفيها دعوة للمؤمنين إلى النظر في مآل المكذبين والتدبر في عاقبتهم، وفي هذا بيان لأمر الله الماضي في كونه وخلقه، وهدى لمن استجاب له وموعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ثم غرض الآيات الكريمة لتنهى المؤمنين عن الهوان والحزن فهم أعلى بإيمانهم وأرقى بيقينهم وأثبت بصلتهم بربهم جل وعلا، وتبين لهم أن مس القرح قد أصاب عدوهم كما أصابهم، وهذه حكمة الله الماضية في المداولة بين الكفر والإيمان لحكم يعلمها تعالى من مَحْص صفوف الإيمان ومحق جنود الكفر، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ويرى ابن كثير أن اسم الإشارة (هذا) يقصد به القرآن الكريم «ففيه خبر ما قبلكم، وهدى لقلوبكم وموعظة؛ أي زاجر عن المحارم والمآثم، ثم يوضح أمر هذه الحكمة الماضية والسنة النافذة في ضوء الآية الكريمة فيقول: وأنتم (إن كنتم قد أصابتكم جراح وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح).

"**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**": أي نديل عليكم الأعداء تارة وإن

---

(١) آل عمران:١٣٧-١٤١.

كانت لكم العاقبة، لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: "**وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**"[1].

«وفي هذه الآيات الكريمة إشارة إلـــى ســـنة الله الجاريـــة فـــي المكذبين، ليقول للمسلمين: إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة، إنما هو حادث عابر وراءه حكمة خاصة.. فـــالقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض؛ يردهم إلى الأصول التي يجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعًا في الحياة فالنواميس التـــي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمـــة من وراء الأحداث، وتبدت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمـــأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كـــان فـــي ماضـــي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كـــونهم مســـلمين لينـــالوا النصـــر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعـــة الله وطاعـــة الرسول.

والسنن التي يشير إليها السياق هنا ويوجه أيضا نظرهم إليهـــا هي:

بيان عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ومداولة الأيام بين النـــاس والأنبياء لتمحيص السرائر وامتحان قـــوة الصـــبر علـــى الشـــدائد،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، جـــ١ صــــ٤٠٨، بتصرف وترتيب.

واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين.

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضـــيها فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها، وهؤلاء العرب الـــذين وجـــه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم ولم تكن تجاربهم قبل الإسلام لتسمح لهم بمثل هذه النظرية الشاملة، لولا هذا الإســـلام وكتابه القرآن الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق منهم أمة تقـــود الدنيا.

إن النظام القبلي الذي يعيشون في ظله ما كان ليقود تفكيرهم إلـــى الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم، فضلا عن الـــربط بـــين سكان هذه الأرض وأحداثها، فضلا على الربط بين الأحداث العالميـــة والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعًا. وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان، إنما حملتهـــا إليهم هذه العقيدة بل حملتهم إليها، وارتقت بهم إلى مستواها في ربـــع قرن من الزمان.. واتسع تصورهم لها.. ووقع في حسهم التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة فاستقامت حياتهم على التعامل مع سنن الله الثابتة، والاطمئنان بعد هذا إلى مشيئة الله المطلقة»[(١)].

هذا وعند تتبع أقوال المفسرين لهذه الآية الكريمة نجد أن بعضهم جعل الآية الأولى والثانية: +**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُـــنَنٌ فَسِـــيرُوا فِـــي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُـــدًى**

(١) انظر: في ظلال القرآن جـــ١ صـــ٤٧٨، ٤٧٩، بتصرف واختيار.

وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ" جعلوا هاتين الآيتين تمهيدًا لما بعدها من النهي عن الوهن والحزن وما يتبع ذلك[١].

ويرفض صاحب المنار هذا التناول ويرى أنه (رأي ضعيف، فإن ذكر السنن بعد آيات متعددة في موضوعات مختلفة تفيد معاني كثيرة تحتاج إلى شرح طويل جدا لا معنى واحدًا كما قيل، وإن في القــرآن في إفادة المباني القليلة للمعاني الكثيرة بمعرفة السياق والأسلوب ما لا يخطر على بال أحد من كتاب البشر وكلماتهم، ومثل هذا مما تجــب العناية ببيانه). [٢]

ووردت لفظة سنة مجموعة كذلك في سورة النساء في قوله تعالى: "**يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**"[٣].

والآية الكريمة واردة بعد بيان واضح وتفصــيل شــامل لقضــية الزواج وأمر العلاقة بين الرجل والمرأة، ومن يجوز أن يكون للرجل زوج ومن لا يجوز، ثم تأتي الآية الكريمة موضحة نوعًا من لطف الله تعالى بعبادة ورحمته بخلقه بأنه يريد أن يبين لهم ويهديهم طرق الدين

---

(١) انظر: تفسير الجلالين، صـ٨٥، ط دار المعرفة، ط الثالثة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. وانظر: تفسير القرآن العظيم جـ١ صـ٤٠٨، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في= =وجوه التأويل جـ١ صـ٣٦٧. ومحاسن التأويل جـ٢ صـ٤١٦. وقل مــن تعــرض لربط الآيات ببعضها بهذه السنة الثابتة كالألوسي في روح المعاني على اقتضاب، جـ٢ صـ٢٧٩، ط دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

(٢) تفسير المنار، ج١، ص ١١٤.

(٣) النساء: ٢٦.

من قبلهم، وهو -عز وجل- عليم وسع كل شيء، وحكيم يصنع بعلمه ما يريده بحكمته.

وقفات ولمحات:

ومن خلال هذه الإطلالة السريعة في آيات السنن في القرآن الكريم يظهر الآتي:

أولا: أن لفظة سنة وردت في القرآن الكريم أحيانًا مفردة (ســـنة) وأحيانًا مجموعة "**سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**"([1]).

ثانيًا: إنها أحيانًا تأتي مقطوعة (أي ليست مضافة وأحيانــًا تــأتي مضافة وإضافتها تكون إلى الله تعالى: " **فَلَن تَجِدَ لِسُــنَّتِ اللهِ تَبْــدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا**"[2] أو مضافة لــ(نا) العظمــة "**وَلاَ تَجِــدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا**"، وأحيانًا تضاف إلى غير الله تعالى كقوله عز وجل: "**لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِــينَ**"[3] +**فَهَــلْ يَنظُــرُونَ إِلاَّ سُــنَّتَ الأَوَّلِينَ**"[4].

"**يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم**"[5].

ثالثًا: أن اللفظة وردت في السور المكيــة كــالحجر والإســراء

---

[1] - النساء ٢٦.
(٢) فاطر: ٤٣.
(٣) الحجر: ١٣.
(٤) فاطر: ٤٣.
(٥) النساء: ٢٦

والكهف وفاطر وغافر وآل عمران والنســـاء والأنفـــال والأحـــزاب والفتح.

رابعًا: أن السياق الذي وردت فيه اللفظة غالبًا مـــا يـــدور حـــول الصراع بين الحق والباطل والكفر والإيمان، وصدود الكفر أمام نور الإيمان، وأساليب الباطل أمام ضوء الحق الناصع.

خامسًا: أنها قد ترد عقب بيان جزء من المنهج التشـــريعي، كمـــا ورد ذلك في سورة النساء عقب الحديث عن أمر الزواج ومتعلقاته.

سادسًا: أنها قد تأتي بمعنى العقوبـــة النافـــذة والقـــدر المحتـــوم، وسيتضح ذلك - إن شاء الله- عند الحديث عن صفات السنة الإلهيـــة والخصائص العامة لورود السنن.

المبحث الثالث
السنن الربانية في السنة المطهرة

الناظر في سيرة الرسول r كلاما وعملا -وهي الجانب التفصيلي للقرآن الكريم- يجد كيف كان صلوات الله وسلامه عليه يحسن التعامل مع سنن الله في كونه وقوانينه في عباده، فما من معركة إلا والرسول يتعامل مع الأسباب؛ يجعل مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقائدا، ثم يقبل على الله تعالى ملحًّا في دعائه مبتهلا في رجائه، فهذا نوع من إدراك سنن النصر التي تعتمد على أسباب مادية وأسباب معنوية، وهذا الأخذ بالأسباب في حد ذاته سنة من سنن الله تعالى في الكون.

وفي مجال التربية: حين يربي الرسول أصحابه على قيمة من القيم تلمح استصحاب هذا الإدراك القوي للسنن التي بثها الله تعالى في خلقه، فحديثه عن اتباع سنن مَنْ قبلنا من الوضوح بمكان، وإرشاده لمن يستجديه من الناس إلى سنة الله في الرزق واضحة عندما يأمره بأن يذهب فيشتري قدوما ويحتطب، وإرشاده الأعرابي إلى عقل الناقة وربطها عندما قال له: يا رسول الله، أأتركها وأتوكل على الله، قال: (بل اعقلها وتوكل)([1]).

وتصويره للمجتمع الذي يتعاون على البر والتقوى، والذي يتعاون

[1] - انظر سنن الترمذي: ٦٦٨/٣، وقال الألباني حسن، وصحيح ابن حبان: ٥١٠/٢.

على الإثم والعدوان بمجتمع في سفينة في قوله: «مثل القـــائم علـــى حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إن أرادوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نـــؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وإن أخـــذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» [(١)]. تصوير دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفـــو فـــإن المجتمع يحكمه قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكقوله: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثـــل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بـــالحمى والسهر**»([٢]).

وكقوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» [(٣)].

ومن أروع ما يدل على حرص الرسول على تعلم أصحابه وأمته إدراك السنن الإلهية قوله لزياد بن لبيد: بعد أن ذكر شيئا وقال وذلـــك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحـــن نقـــرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا، وأبناؤنا يقرءونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب (هل يقرع في القسمة والاستهام فيه). والترمـــذي، كتاب الفتن. وأحمد (أول مسند الكوفيين).

[٢] - مسلم ١٩٩٩/٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب (تشبيك الأصابع في المسجد وغيره). ومسلم، كتاب البر والصلاة والآداب.

ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء» (١).

وهذا الحديث الشريف يوضح إرشاد الرسول لأصحابه إلى أمـــر السنن التي تعم الجميع وتمضي بلا استثناء، وفي هـــذا إجابـــة عـــن السؤال الحائر على شفاه المسلمين كيف يكونـــون مســـلمين وتظـــل أحوالهم بهذا التخلف والتأخر والجمود؟ وقد صاغ شوقي ذلـــك فـــي قوله:

وقل يا رســـول الله يـــا خيـــر　　أبثك ما تدري من الحســـرات

شعوبك في شرق البلاد وغربها　　كأصحاب كهف فـــي عميـــق

بأيمانهم نوران ذكـــر وســـنة　　فما بالهم في حالك الظلمات؟!!

فليس المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : «**وذلك عنـــد ذهـــاب العلم**» ارتفاع المعارف والثقافة من الكتب والـــرؤوس؛ بـــل ارتفـــاع الارتباط بينها وبين السنن الكونية وإحسان التعامل بهذا العلم مع تلـــك السنن.

والصحابة الكرام بدورهم كانوا على علم ووعي بهذه السنن، ومن أبرز الذين ظهرت في حياتهم وأقوالهم هذه السنن عمر بن الخطـــاب t الذي قال عنه ابن مسعود عندما مات: «مات تسعة أعشار العلـــم،

(١) ذكره ابن كثير، جـــ٢ ص ٧٦.

فقيل له: أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة؟! فقال: لــم أرد علــم الفتيــا والأحكـــــــــــام، إنمـــــــــا أريـــــــــــد العلـــــــــــم بالله تعالى» [1].

وفي علم الصحابة بعلم السنن الإلهية يقول صاحب المنار: (وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها. يعني أنهم بما لهم من معرفــة أحــوال القبائــل العربيــة والشعوب الغربية منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب و غيرهــا بما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وســبب ســبقهم للأمم التي استولوا عليها، لذلك قال: وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم الفطري المحض، وكذلك كانت علومهم كلهــا، ولما اختلفت حالة العصر اختلافا احتاجت معه الأمم إلى تدوين علــم الأحكام وعلم العقائد وغيرها كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع أو علــم السياســة الدينية، سمِّ بما شئت فلا حرج في التسمية) [2].

وهكذا يتضح علم الصحابة الكرام بهذا العلم الذي هــو مــن أدق أنواع العلوم وأولاها بالحرص والانتفاع، والذي ما فقــد المســلمون توازنهم بحق إلا بعد أن فقدوا الاستفادة منه.

---

(١) تفسير المنار، جــ ٤/ ١١٥، وانظر الإحياء ٢٣/١.
(٢) المرجع السابق نفسه الصفحة نفسها.

***

المبحث الرابع
أهمية دراسة السنن والآثار المرتبة على إهمالها

النظر في السنن الإلهية فريضة وضرورة، فهو فريضة للآيــات الكريمة التي تحث على النظر والسير والاعتبار بمن خلوا، والتفكــر في آثار الذاهبين؛ فالسعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفســه. وضرورة للظرف الراهن الذي يمر به المسلمون اليوم، ولأمــر مــا كانت توجيهات القرآن الكريم للمسلمين عقب كل قصة من قصصه في خلاصة نادرة كأنها اختزال للحدث كله وإشارة للاحقين للانتفاع مــن أحوال السابقين، فعندما تقرأ قصة قارون في سورة القصص تجد في نهايتها ما يشبه السنة العامة والقانون المطرد في قوله تعالى: +**تِلْــكَ الدَّارُ الآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِــي الأَرْضِ وَلاَ فَسَــادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**"[1].

وهكذا في كل قصة من قصص القرآن الكريم حتى يظل عطــاء القرآن الكريم ماضيا ما مضى الليل والنهار، ومعطاء ما وجد من يعي ويعتبر، وقليل من العلماء السابقين الذين توقفوا عند النظر في سنن الله تعالى والكتابة حولها، ومن أبرز هؤلاء صــاحب (الإحيــاء) حجــة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله، الذي يقســم العلــم إلــى محمــود

---

(١) القصص: ٨٣.

ومذموم، ويقول في بيان قدر المحمود من المعلوم المطلــوب: (وأمـــا القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بـــالله تعـــالى وبصفاته وأفعاله وسننه في خلقه وحكمته في ترتيــب الآخـــرة علـــى الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى مادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه، بقدر مـــا يسر لهم وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتعاون تقدير الله تعـــالى في حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب ويعين على التنبيه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة.. هذا فـــي أول الأمـــر ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة، وتصفية القلب وتفريغـــه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء؛ ليتضح منـــه لكـــل سائح إلى طلبه بقدر الرزق لا يقدر الجهد، ولكن لا غنى فيـــه عـــن الاجتهاد؛ فالمجاهدة والرياضة ومفتاح الهداية لا مفتاح لها سواه] (1).

فانظر -رعاك الله- إلى مدى أهمية هذه النظرة إلى هذا الجانـــب من جوانب فعل الله تعالى في خلقه، والتي جعلهـــا الإمـــام الغزالـــي مساوية للعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وهل ســـنن الله فـــي خلقـــه وكونه إلا صنف من أفعاله سبحانه؟ ومن الذين لمحـــوا إلـــى أهميـــة دراسة السنن وضرورة التعرض لها والإفادة منها، حكـــيم الإســـلام

(1) انظر: إحياء علوم الدين، جـــ١ صـــ٤٥، ط عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

الأستاذ الإمام محمد عبده -رحمه الله تعالى- والذي وصف تفسيره أنه (يبين حكم التشريع وسنن الله في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشــر في كل زمان ومكان». ويوازن بين هدايته وما عاين المســلمون فــي هذا العصر؛ إذ يقول رحمه الله: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن لـــه فــي خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونــة لتستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أجمل وجه، فيجــب علــى الأمة في مجموعها أن يكون بها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليهــا القــرآن بالإجمال.. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعهــا، والقــرآن يحمل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمــم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها[١].

وجعل رحمه الله المرتبة العليا في فهم تفسير القرآن الكــريم، وتفسيره لا يتم إلا بأمور من أهمها (علم أحوال البشر) أو علــم السنن الإلهية، (فقد أنزل الله القرآن وبيَّن فيه كثيرًا مــن أحــوال الخلق وطباعهم والسنن الإلهية في البشر؛ فقص علينــا أحســن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسننه فيها، فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر وأطــوارهم وأدوارهــم، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضــعف وعــز وذل وعلــم وجهل وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العــالم الكبيــر علويــه

(١) تفسير المنار، جـــ٤ صـــ١١٤، ١١٥، بتصرف يسير.

وسفليه، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها علم التـــاريخ بأنواعه. وأجمل القرآن الكلام عن الأمم وعـــن الســـنن الإلهيـــة وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفـــس، وهـــو إجمال صادر عمن أحاط بكل شـــيء علمًـــا، وأمرنـــا بـــالنظر والتفكر والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيـــدنا ارتقاء وكمالا، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكنـــا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة» [1].

وتظهر أهمية دراسة السنن الإلهية في الكون والقرآن الكريم عندما يظهر أن هذه السنن بصفاتها السابقة وسماتها الثابتة تتلاقى مع السنن الكونية التي تجري على سائر البشر، فتعلم أن الثانيـــة وجـــه آخـــر للأُولي؛ بل وطريقة مأمون للدلالة على الله تعالى من أقـــرب طريـــق وهو طريق النظر في (الأنفس والآفاق) التي قال عنها القرآن الكريم: **+سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"** [2].

فالعلم بالسنن الإلهية من أعظم الوسائل لكمال العلم بـــالله تعـــالى وصفاته وأفعاله، وأقرب الطرق إليه وأقوى الآيات الدالة عليه، وأعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونـــون بها أعزاء أقوياء سعداء، وإنما يرجى كمال الاستفادة منه إذا نظر فيه

(١) انظر: تفسير المنار، جـــ١ صـــ٢٠، ٢١، بتصرف يسير.
(٢) فصلت: ٥٣.

إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعًا [1].

وهذا النظر إلى السنن يجعل الإنسان أقدر على التعامل مع سنن الكون ونواميس الحياة الثابتة بلا تغير، المطردة بلا توقف، الماضية على الأفراد والجماعات والشعوب، وهذه المعرفة لسنن الله تعالى في الآفاق والأنفس لا تقل في أهميتها عن معرفة قوانين المادة والتعامل معها، «فإن لسلامة النظرية أثرًا هامًا في الوصول إلى الحل بلا توقف الحل على صحتها ومقدار وضوحها.. ومن أكبر الظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع (الآفاق والأنفس)، فيهمل نفسه ولا يضعها في المكان الذي يسخر الآفاق والأنفس على أساس السنن المودعة فيها[2].

وإذا نظرنا إلى مجال من مجالات المادة كالطب مثلا، أدركنا مدى أهمية دراسة السنن ومعرفتها؛ «فالطب بما وصل إليه من كشف قوانين الصحة والمرض العضوي للكائن الحي مكن الطبيب بواسطة هذه القوانين وتسخيرها من التغلب على الأمراض والآفات، فالذي يعلم هذه القوانين يمكنه أن يستخدم إزاء المرض إجراءات فورية في الدواء والغذاء والعمل، وأخرى مرحلية لإعادة التوازن إليه. إن الذي يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل هو من يعرف القوانين التي يخضع لها الكائن الحي، بينما إنسان آخر لا يعرف القوانين ولا كيفية التدخل لإعادة

---

(١) انظر: تفسير المنار، جـ٧ صـ٤١٧، بتصرف يسير.
(٢) حتى يغيروا ما بأنفسهم، صـ١٤، ١٥، بتصرف وترتيب.

التوازن، فهو ينظر إلى المريض ويرى آثـــار المـــرض مـــن الآلام والعجز عن الحركة وعن القيام بمهمات الحياة اليومية، بينما يرى هذه الآثار واضحة مؤلمة لا يستطيع أن يتدخل فيها، ولا يمكنه أن يـــدرك مقدار الخطورة، ولا الوسائل القريبة أو البعيـــدة التـــي ســـتنقذ هـــذا المريض أو تحطمه، إنما يملك فقط أن يذرف الدمع بغزارة على آلام من يحب» [1].

وإذا تجاوزنا هذا الجانب الملاحظ من قوانين المـــادة والـــذي لا يختلف عليه اثنان؛ لأنه واقع محسوس ومعيش ملموس عند الجميـــع، إذا تجاوزنا ذلك إلى أمراض المجتمع من تحلل خلقي للفســـاد وعـــدم قدرة على الحياة حياة صحيحة صحية أدركنا أنه يوجد تشابه كبير بين الجسد الإنساني والجسد الاجتماعي، في احتياج كل منهما إلى الطبيب المداوي والنطاسي الحاذق الذي يشخص الداء ويصف الدواء، حتـــى يلبس مريضه ثوب الصحة والعافية ويشفى شـــفاء لا يغـــادر ســـقما، والعجيب في ذلك أن الناس يعون تمام الوعي مدى حاجتهم إلى معرفة قوانين الطب لفحص أجسادهم، وقوانين الهندسة لتصح حيـــاتهم، ولا يدركون الحاجة الماسة إلى قوانين المجتمع أو «السنن الإلهية». وقـــد نجد أطباء أجساد كثيرين، لكننا لا نجد أطباء مجتمع على علم بقوانين الله تعالى في الاجتماع العمراني والاختلاط البشري، حتى أثر ذلك في قواعـــــــــد الفكـــــــــر لا أقـــــــول عنـــــــــد

(١) السابق، صـــ١٧، بتصرف يسير.

عامة الناس بل عند خواصهم وخواص خواصهم من العلماء، فضـــلا عن عامة الناس.

إن هؤلاء جميعا الذين نراهم حريصون على المجتمـــع وصـــحته وسلامته وإنعاشه من غيبوبته، لا ينقصهم إخلاص ولا حرارة حماس، وإنما ينقصم فهم شمولي يستوعب التعامل مع نواميس الكون وســـنن الحياة. «إنهم يبكون على الإسلام الذي أخذ أهله ينحسرون عنه كمـــا يبكي المحب الجاهل على المريض الذي اشتدت عليه وطأة المرض، بينما كان نفعه لهذا المريض أجدى لو سعى لـــيعلم طريقـــة عـــلاج المرض، ذلك أن الله تعالى ما أنزل داء إلا له دواء، وما يقـــال فـــي أمراض الجسم يقال في أمراض المجتمع»[١].

وعدم إدراكنا لهذا الترابط الموجود بين معطيات الكون هو الذي حرمنا الاستفادة من الكثير من خيره؛ بل يوقعنا في الكثير من شرره؛ لأن قوانين الله تعالى لا تحابي ولا تجامل؛ بل يمضي على اللاحقـــين ما مضى على السابقين إذا سلكوا نفس سبيلهم ونسجوا على منوالهم.

وإذا تجاوزنا عصر الصحابة الكرام إلى من بعدهم إلى الآن نجد الذين عنوا بالدراسات والكلام في علم السنن بصفة عامة لا يتجاوزون أصابع اليدين، ومن هنا أصبحت نظرتنا إلى الكـــون والحيـــاة بغيـــر المقياس الذي أرادنا الله تعالى أن نقيس به؛ فالقرآن الكريم يقول عـــن نفسه: +**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّـــذِينَ**

---

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص ٢٢.

يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا.وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِـــالآَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"[١] فهل فهم المسلمون هـــذه المقـــاييس التـــي يعتمدها القرآن الكريم في حكمه على الأشياء حتى يصلوا إلى (التـــي هي أقوم)؟!.

هناك خلاصات كثيرة وعصارات من أحوال الأمـــم والشـــعوب تحدث عنها القرآن الكريم، فما أفاد المسلمون منها قلـــيلا ولا كثيـــرا، يحدثهم القرآن عن أمم فنيت لأسباب وتحللت قواها وضـــاع مجـــدها لأنها لم تأخذ بأسباب البقاء، ونرى المسلمين يقومون بنفس الدور الذي قام به السابقون من الأمم الماضية دون أن يتعظوا، واتبعـــوا ســـننهم ونسجوا على منوالهم على الرغم تشريح القرآن الكريم لأسباب البقاء والفناء للأمم والشعوب في آيات كثيرة، وما خبر الملأ الذين خرجـــوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت عنا ببعيد!!.

إن القرآن الكريم ملئ بهذه الخلاصات المعتصرة مـــن تجـــارب السابقين، اقرأ مثلا قوله تعالى: " **تِلْكَ الدَّارُ الآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّـــذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"**[٢] بعد أن ساقت السورة الكريمة قصة قارون لتؤكد للمســـلم أن الاســـتبداد السياســـي والحكم الفردي بدعائمه وقوائمه وخيم العاقبة، وأن الغلبة في النهايـــة للمتقين، فهل انتفع من هذه الخلاصة المسلمون في طريقة حكمهـــم أم

(١) الإسراء: ٩.
(٢) القصص: ٨٣.

أخذوا من فرعون وقارون أهم الصفات وأخص السمات.

واقرأ قوله تعالى: "**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**"[^1] لترى فيه القانون الثابت في آثار الاستقامة.

واقرأ قوله تعالى: "**إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ.وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**"[^2] لنرى باطمئنان أن النصر في النهاية للحق والظفر في الخاتمة للصدق. واقرأ "**إِن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**"[^3]، "**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**"[^4] و"**إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**"[^5] لنرى بوضوح ملامح قانون النصر، ونرى معه كم أفدنا نحن المسلمين من هذا القانون في تعاملنا مع غيرنا. واقرأ قوله تعالى: "**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**"[^6]، وقوله تعالى: " **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"[^7] لنرى بجلاء لا يساوره غبش، ووضوح لا يعتليه شك ضوابط قانون التغيير، وكم أفدنا نحن المسلمين الراغبين في تغيير أحوالنا

[^1]: (١) يوسف: ٩٠.
[^2]: (٢) يونس: ٨١، ٨٢.
[^3]: (٣) محمد: ٧.
[^4]: (٤) آل عمران:١٢٦.
[^5]: (٥) آل عمران: ١٦٠.
[^6]: (٦) الرعد: ١١.
[^7]: (٧) الأنفال: ٥٣.

وأوضاعنا الراهنة من هذا القانون الإلهي والسنة الماضية.

واقرأ قوله تعالى: " **وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**"[١]، وقولــه: "**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**"[٢] وقولــه: +**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَــذَابِي لَشَــدِيدٌ**"[٣]، وقولــه: +**ضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَــانُوا يَصْنَعُونَ**"[٤] وقوله عز من قائل: +**وَقَلِيلٌ مِّــنْ عِبَــادِيَ الشَّــكُورُ**"[٥]، وقوله تعالى: "**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**"[٦]، وقوله تعالى: "**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَــابِ مَــن يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا**"[٧].

وقوله تعالى: "**إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**" لتــرى القــانون الثابت في عدم صلاح عمل المفسدين، وقوله تعالى في الحديث عــن قانون الشكر والشاكرين: +**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**"، وقوله تعالى: "**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَــتْ آمِنَــةً مُّطْمَئِنَّــةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَــاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**"، وقوله تعالى في ســورة ســبأ:

---

(١) آل عمران: ١٤٠.
(٢) المائدة: ١٠٠.
(٣) إبراهيم: ٧.
(٤) النحل: ١١٢.
(٥) سبأ: ١٣.
(٦) الرعد: ١٧.
(٧) النساء: ١٢٣.

"**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلا**" إلى قوله تعالى: "**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَـــاتٍ لِّكُـــلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**" لنرى من خلال هذه الآيات الكريمة سمات ثابتة لأمـــر الله تعالى في الشاكرين والكافرين.

واقرأ قوله تعالى في سنة البقاء والفناء: " **أَلَمْ تَـــرَ إِلَـــى الَّـــذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُـــوا ثُـــمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْـــكُرُونَ**" إلى قوله تعالى: "**تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْـــكَ بِـــالْحَقِّ وَإِنَّـــكَ لَمِـــنَ الْمُرْسَلِينَ**" لترى في هذه الآيات الكريمة لونا مـــن ألـــوان التشـــريح لأسباب البقاء وعوامل الفناء من خلال رصد أمة من الأمـــم تســـرب إليها الوهن وسرى فيها الخور.

واقرأ كذلك قوله تعالى: " **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**"[١] لترى قانونا من قوانين الله تعـــالى فـــي عـــدم إهـــلاك المصلحين، وهذا وعد من الله تعالى بـــذلك وفـــرق بـــين الصـــلاح والإصلاح؛ فالإصلاح كما هو متعد في المبنى فهو متعد في المعنـــى، كذلك الفعل الرباعي أصلح الشيء يصلحه إصلاحا، ومعنـــاه انتقـــال الصلاح من صاحب الدعوة إلى غيره، ونجد هذا الترابط أكثر ظهورا في قوله تعالى من سورة الأعـــراف: " **وَالَّـــذِينَ يُمَسِّـــكُونَ بِالْكِتَـــابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**"[٢] فهناك كما هو واضح

(١) هود: ١١٧.
(٢) الأعراف: ١٧٠.

ارتباط بين صدر الآية (يمسِّكون) الذي يدل على تعدي الإمساك إلـــى التمسيك، وعَجُزها (المصلحين) الذي يدل على انتقال الصلاح إلى فرد آخر بعد الداعية المصلح.

وإذا كان الله قد تعهد بعدم إهلاك المصلحين فإن هـــذا الوعـــد لا ينسحب على الصالحين، لجوابه صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشـــة عندما سألته: يا رسول الله، «أنهلك وفينا الصالحون؟ قـــال: نعـــم، إذا كثر الخبث» [(١)]. ونستطيع أن نقول عن هذا القانون أو تلـــك الســـنة: (قانون الصالحين والمصلحين).

ولو قرأنا مثلا قوله تعالى: +**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّـــاسَ أُمَّـــةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ.إِلاَّ مَن رَّحِـــمَ رَبُّـــكَ وَلِـــذَلِكَ خَلَقَهُـــمْ**"[(٢)] لوجدناها ترصد قانونا من قوانين الله تعالى في طبائع البشـــر، وهـــو اختلافهم المستمر الذي لا يقف عند حد.

****

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج. ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة.
(٢) هود: ١١٩.

الفصل الثاني

خصائص السنن الربانية وحجيتها ومواردها

المبحث الأول

خصائص السنن الربانية

ما زلنا بحاجة إلى معرفة خصائص هذه السنن؛ حتى يتسنى لنا الاستفادة منها ونحسن التعامل معها على أساس واضح ونهج سليم، ويمكن حصر هذه الخصائص فيما يلي:

السنن الإلهية حاكمة على الجميع:

والملاحظ من استقراء لفظ (سنة) ومتابعة السنن الواردة في القرآن الكريم أن السنن الإلهية حاكمة على جميع الأفراد، وهي صورة أخري من صور فعل الله تعالى تقابل الصورة الأولى والتي تمثل السنن الكونية، فإذا كان القرآن الكريم يقول في السنن الكونية -أعني الظواهر الطبيعية-: " **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير**"[1]، ويقول: +" **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**"[2] بما يظهر للرأي حاكمية هذه الظاهرة

---

(١) الحج: ٥-٦.
(٢) الأنبياء: ٣٠.

الكونية. ويقول في وصف جريان الشمس على قانون منضبط ونظـام ثابت: " **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**"(١) وكما أن السنن الكونية أو الظواهر الكونية حاكمة على الجميع فتغلـي المياه عند درجة مائة، وتتجمد عند درجة صفر، وتعطي هذه النتيجـة لكل من يتعامل معها بغض النظر عن دينه ومذهبه، فكـذلك السـنن الإلهية في الأفراد والأمم والمجتمعات، فإذا وقفنا عنـد قـانون مـن قوانين الله تعالى -كقانون النصر- نعلم أن له ضوابط ومعالم تنسحب على الجميع دون مجاملة ولا محاباة.

والناظر في حياة الرسول وسيرته يجد هـذا المعنـى واضـحًا، فعندما أخذ الصحابة سنة الله في النصر مثلا آتى النصر لهـم أُكُلَـه وأعطى ثمره، وعندما خالفوا أمر الرسول وترهلـت قبضـتهم عـن عنصر من عناصر النصر لم تنخرم لهم القاعدة ولم تتبدل لهم السنة؛ بل حكمت عليهم وفيهم أعظم خَلْق الله. ولعل أبرز مثال علـى ذلـك موقف المسلمين في غزوة أحد عندما خالفوا أمر رسول الله وتركـوا حماية ظهورهم من أعلى الجبل -أقصد فصيلة الرماة- فقد تبدل الأمر وتحول من نصر إلى هزيمة؛ لأنهم لم يحققوا سبب النصر من السمع والطاعة المطلقة للرسول. «لقد كان المسلمون السابقون على ثقة مـن

(١) يس: ٣٨-٤٠

نصر الله تعالى لهم، وكانت موقعة بدر أول تباشير هذا النصر، فلمـــا رأوا أن الله تعالى نصرهم على قلتهم وضعفهم بعد ما كان من دعـــاء الرسول وتضرعه واستغفاره ربه، زادهم ذلـــك إيمانًـــا بـــأنهم هـــم المنصورون، ولكن وقع في نفوس الكثيرين إن لم نقــل فـــي نفـــوس الجميع أن نصرهم سيكون بالآيات وبالعناية الإلهية الخاصة من غيـــر التزام بالسنن الإلهية في الاجتماع البشري، وأن وجود الرسول فـــيهم ودعاءه على أعدائهم هما أفعل في التنكيل بالكفار من التزام الأســـباب الظاهرة التي أهمها طاعة القائد والتزام النظام العسكري وغير ذلـــك، ولكن الإسلام دين الفطرة لا الفوارق. هذا البيان الإلهـــي فـــي هـــذه الواقعة تمكن في النفوس ما لا يتمكن لو لم يكن مقرونًا بواقعة مشهودة لا مجال معها لتأويله ولا لتخصيصه أو تقييده»[١].

ذلك أن السنن سنن عامة تنطبق على البشر جميعًا، وليست خاصة بطائفة دون طائفة ولا لجيل دون جيل، والذي يؤكد عمومية الموضوع أن الله يقول للرسول: " **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلى وَمَـــا أَنَـــا إِلاَّ نَـــذِيرٌ مُّبِـــينٌ**"[٢] ويصور الرسول هذا الموضوع بصورة من يرى المستقبل من خلال السنن حين يقول: «ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين من قبلكم (أهل الكتاب) حذو القذة بالقذة» [٣] حتى إنه يصل في المشابهة إلى أن

(١) انظر: تفسير المنار، جـــ٤ صـــ٩٧، ٩٨، بتصرف يسير.
(٢) الأحقاف: ٩.
(٣) الحديث رواه أحمد، مسند الشاميين.

يحشرهم في جحر الضب، ومثل هذا النظر إلى الموضوع هو الـــذي نفتقده الآن، وعلينا أن نكتسبه. وهذه النظرة القرآنية هي التي تجعــل المسلم قادرًا على الاعتبار الذي يلح عليه القرآن، فأمامنـــا تجــارب القرون الماضية، تجارب كثيرة تظهر فيها سنن الأقوام التي يخضـــع لها المسلمون أيضًا كأي قوم من الأقوام، وهذا النظر القرآني يجــرد الإنسان من ملابساته ويرجعه إلى أصـــله المجــرد الـــذي يخضـــع للسنن»[1].

فالسنة الإلهية تجري على الجميع لا فرق بين مجتمع ومجتمع، ولا فرق بين ديانة وديانة، ولا فرق بين جيل وجيل، وإلا لما دعا القــرآن الكريم إلى التفكر في آثار السابقين. فالذي يفهم السنن الإلهية وعمومها يملك القدرة على التعامل مع هذه السنن، ويحسن الاستعداد لنتائجهـــا، وقد قال قوم جهلوا ذلك ندمًا في الآخرة: " **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَـــا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**"[2]

السنن الربانية مطردة:

كما تتسم السنن الإلهية (بالحاكمية والهيمنة) على الجميع، فهـــي أيضًا مطردة لا تتخلف ولا تتبدل، ومن هنا أمرنا الله تعالى بالاتعـــاظ

---

(١) انظر: حتى يغيروا ما بأنفسهم، للأستاذ جودت سعيد، صـــ٢٧، ٢٨، ط مطبعة الحســـين الجديدة، ط الثالثة، ١٣٩٧هـــ ١٩٧٧م، بتصرف واختيار.

(٢) الملك: ١٠.

والاعتبار " **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**"[1] وذلك بعد أن ذكر لنا حـــال يهود بني النضير؛ أي « اتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلـــة على وجه لا تكاد تهتدي إليه الأفكار، واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصي، واعتبروا من حالهم في غدرهم واعتمـــادهم علـــى غير الله تعالى الصائرة سببًا لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعـــدائهم، ومفارقة أوطانهم كارهين إلى حال أنفسهم، فلا تعولوا علـــى تعاضـــد الأسباب وتعتمدوا على غيره عز وجل؛ بل توكلوا عليه».[2] وحفـــل القرآن الكريم بالآيات التي تثبت هذا المعنى وتقويه، وبعـــض النـــاس يخرج النكبات التي تصيب الصالحين عند عدم تعاملهم مع الأســـباب يخرجها على أنها ابتلاء ورفع درجات أو تكفير سيئات وما أشبه هذا الكلام، ولكن الصواب أنه راجع إلى عدم تخلف السنن واطرادها فـــي كل حال «إن القرآن الكريم بين للناس أن سنن الله تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة، ومن سار علـــى ســـننه ظفـــر بمشيئة الله وإن كان ملحدًا وثنيا، ومن تنكبها خسر وإن كان صـــديقًا نبيا، وكأن بعض المسلمين لم يكونوا قد حفظوا ما ورد فـــي الســـور المكية من إثبات سنن الله في خلقه، وكونها لا تتبدل ولا تتحـــول، أو حفظوه ولم يفقهوه ولم يظهر لهم انطباقه على ما وقع لهم في أُحُـــد.. لذلك صرح لهم بأن سننه عامة جرى عليها نظام الأمم من قبـــل، وأن

---

(١) الحشر: ٢.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي، جـ٢٨صـ٢٣٥، ط دار الكتاب العلمية، ط الأولى، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

ما وقع لهم مما يقضي حكمة عليهم مطابق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبـــدل»[1]. وكانـــت عنايـــة القـــرآن الكـــريم بهـــذا المعنـــى - أي اطراد السنن الإلهية- عظيمًا، فبعد أن تحدث عن الذين اعتدوا في السبت من بني إسرائيل قال: " **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِين**"[2]

وفي (سنة) الرسول ما يؤكد هذا المعنى؛ فقد صح عن رسول الله فيما ذكره ابن كثير في تفسيره عن زياد، أنه قال: (ذكر النبـــي شـــيئًا فقال: وذلك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلـــم ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا وأبناؤنا يقرؤونه لأبنائهم إلـــى يـــوم القيامة؟ فقال: ثكلتك أمك يا بن لبيد، إن كنت لأراك من أفقـــه رجـــل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيـــل ولا ينتفعون مما فيها بشيء»[3].

من هنا نستطيع أن نقول:

١- إن السنن الإلهية ثابتة لا تتغير ولا تبدل.

---

(١) انظر: تفسير المنار، جـ٤ صـ١١٦، بتصرف يسير. وانظر في هذا المعنى: صـــفحات ٤٥، ١٣٤ من نفس الجزء. و جـ١ صـ٢٨٥ - ٣٤٩، جـ٢ صـ ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٨.

(٢) الأعراف: ٦٥، ٦٦.

(٣) ذكره ابن كثير عند تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة، الجـــزء ٢ ص ٧٦، ط الحلبـــي، وقال: هكذا رواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع به نحوه، وهـــذا إســـناده صحيح.

٢ - حاكمة لا تحابي و لا تجامل.

٣ - مطردة لا تتوقف و لا تتأجل.

٤ - عامة لا تنتقي و لا تنتخب.

المبحث الثاني
حجية السنن الربانية

سبق أن تناولت الدراسة الحديث عن خصائص السنن الربانية من الشمول والاطراد وعدم التبدل أو التحول، ويطرأ هنا سؤال عن السنن الربانية وعن دلالتها قطعية ؟، والناظر في آيات السنن الربانية يجـــد في البداية أنها قطعية الثبوت، وذلك لأنها جزء من آيات القرآن الكريم الذي ثبت كله ثبوتا قطعيا، أما دلالتها من حيث كونها حجـــة يعتمـــد عليها ويستدل بها فإنها أيضا قطعية الدلالة على المراد منها؛ وذلـــك لكثرة تكررها والتأكيد عليها وعلى مدلولاتها، والأمر فـــي خواتيمهـــا بالاعتبار والاتعاظ سواء كان ذلك في الآيات التـــي ورد فيهـــا لفـــظ «السنن» صراحة، أو الآيات التي تناولت تفصيل الســـنن كالتـــداول الحضاري، والأجل، والتسخير، والإهلاك، وشـــكر الـــنعم وكفرهـــا، والتغيير، والترف والمترفين، إلى غير ذلك من السنن المبثوثـــة فـــي القرآن الكريم.

ولو لم تكن السنن الربانية قطعية الدلالة لما أمر الله تعالى بالسير في الأرض والنظر فيمن جرت عليهم سننه عز وجل كقولـــه: " **قَـدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ**

الْمُكَذِّبِينَ.هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُــوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِــيُمَحِّصَ اللهُ الَّــذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ"[(١)].

ومن هنا فهم العقلاء هذه الحجية للسنن الربانية، فاستدلوا بها وأقاموا من خلالها الحجة على أقوامهم؛ فمؤمن آل فرعون يقول لقومه ساحبًا حكم من سبق عليهم لتحققهم بصفاتهم: **+يَا قَــوْمِ إِنِّــي أَخَــافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَــيْكُمْ يَــوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُّضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِــي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُــولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ"[(٢)].**

فالذي يتأمل هذه الآيات الكريمة يجد كيف استدل مؤمن آل فرعون بالسنن التي مضت في الأمم السابقة، (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم).

«وحقيقة السنن التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين،

---

(١) آل عمران: ١٣٧-١٤١.
(٢) غافر: ٣٠-٣٤.

وعلى أساس هذا يكون الاستدلال بالسنة. يقول ابن تيمية -رحمه الله-: وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى: " **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأبْصَارِ**"[1]، وقوله عز وجل: " **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأبْصَارِ**"[2].

وإنما تكون العبرة بالقياس والتمثيل، فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيدا، ومن كذبهم كان شقيا، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول الله في تحقيق عادته وسننه وأنه لا ينقضها ولا يبدلها: " **أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ**"[3].

---

(١) آل عمران: ١٣.
(٢) الحشر: ٢.
(٣) القمر: ٤٣.

هذا تطبيق الاعتبار والقياس، ثم قال: (أم لكم براءة فـــي الزبـــر، فنفى الدليل العقلي والسمعي فيقول: فإذا لم يكونوا خيرا منهم فكيـــف ينجو من العذاب مع مماثلتهم لهم؟)[1].

وهكذا يتضح أن السنن قطعية الدلالة على مرادها؛ لأنها لو لم تكن كذلك لما كانت مطردة سارية على الجميع.

الســـــــــنن الربانية والنســـــــــــخ:

وإذا كان الأمر كذلك فإن النسخ -الذي هو بمعنى الإزالة والمحو- لا يطرأ على السنن الربانية؛ وذلك حتى تستمر خصائص هذه الســـنن وفعاليتها في الأمم الحاضرة والآتية كما انطبقت على الأمم الماضية، فعموم السنن ينافي نسخها، واطرادهما أيضا ينـــافي نســـخها، فكـــل خصيصة من خصائص السنن الإلهية تثبت أن النســـخ لا يتفـــق مـــع السنن ولا يجري عليها، وإلا فإن معظم موارد السنن الربانية يكمن في القصص القرآني والأمثال، وهذه الأبواب لا يـــدخلها النســـخ باتفـــاق العلماء؛ لأنها أخبار والجانب الإخباري في القرآن لا يتطـــرق إليـــه النسخ.

السنن الربانية والإعجاز:

قلنا إن السنن تجري حسب نظام دقيق منضبط لا يتغير ولا يتحول

---

(١) انظر النبوات، لابن تيمية: ٢٦٥/١،ط المطبعة السلفية- القـــاهرة ١٣٨١هــــ ، وقـــدر الدعوة، للأستاذ رفاعي سرور، صـــ٧١، ٧٢، ط مكتبـــة الحـــرمين للعلـــوم النافعـــة، ١٤١٢هـــ ١٩٩٢م.

ولا ينخرم لسبب من الأسباب، فهل هذا الانضباط والســير المطــرد ينافي الإعجاز أو المعجزة؟ الواقع أن السنن الربانية إذا كانت تجــري (بحسبان) وعلى نظام منضبط، فإن المعجزة أيضا تجري حسب نظام منضبط، لكن الخط الذي تجري فيه السنن غير الخط الذي تجري فيه المعجزة، والمجال الذي تعمل فيه السنن غير المجال الذي تعمل فيــه المعجزة؛ فالمعجزة (أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة إثباتا له في مدعاه، أو أمر خارق للعــادة مقــرون بالتحــدي وعــدم المعارضة، أو هي أمر قصد به إظهار صـــدق مــن ادعــى النبــوة والرسالة)[1].

وتلك المعجزات التي يؤيد الله تعالى بها أنبياءه ومرسليه هي مــا تسمى الخوارق، أو تسمى السنن الخارقة، وهي التي تقابــل الســنن الجارية، فإذا كانت السنن الجارية تمضي حسب ناموس منضبط ظاهر للناس عرفوه وألفوه، فإن المعجزة أو السنن الخارقة أيضــا تجــري حسب ناموس منضبط لكنه مغاير للناموس الذي تجري عليه الســنن الجارية (فالله تعالى له من طلاقة القدرة بحيث يخفي الظــاهرة عــن القانون الذي يحكمها، سواء أكان ذلك في الطبيعة أم كان في الأحيــاء أم كان في الاجتماع والسلوكيات؛ ففي مجال الطبيعة مثلا ما ورد في الشرع من حادثة انشقاق القمر وانفلاق البحر، وحجب الســكين عــن

---

(١) شرح المقاصد، للعلامة سعد الدين التفتا زانـــي، ج٣ ص٢٧٣، ط دار الكتــب العلميــة بيروت لبنان، ط أولى ١٤٢٢ هــ، ٢٠٠١م.

طبيعتها وهي القطع، وحجب النار عن طبيعتها وهي الإحراق. وفـــي مجال الحياة وقوانينها نرى إبراهيم -عليه السلام- يلقى في النار ولا يحترق ولا يموت من نقص الأكسجين، ويونس -عليه السلام- يعيش في بطن الحوت تحت طبقات الماء فترة من الزمن ولا تتـــأثر حياتـــه بذلك.

وفي مجال الاجتماعيات نرى أن موسى -عليه السلام- ينتصـــر بقلب العصا ثعبانا، وأن سيدنا محمدا ينتصر بمعونة خمسة آلاف مـــن الملائكة(١). ولا تعارض هنا بين الســـنن الثابتـــة الجاريـــة والســـنن الخارقة؛ فكل يجري حسب قانونه المنضبط لا يحيد عنه ولا يميد.

والسنن الجارية كما رأينا في خصائصها لا تســـتثنى ولا تحـــابي (حتى معجزة الأنبياء التي قد تفهم على أن معناها قائم علـــى خـــرق السنة، فإننا نجد أن معناها لا يقوم أصلا إلا على أساس حقيقة السنة. يقول ابن تيمية: وحقيقة الأمر أن ما يدل على النبوة هو آيـــة علـــى النبوة وبرهان عليها، فلا بد أن يكون مختصا بها ولا يكون مشـــتركا بين الأنبياء وغيرهم، والرب تعالى لا ينقض عادته التي هي سنته في التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، فهو سبحانه إذا ميـــز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها، قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره ويختص به. ولا ريـــب أن النبـــوة

---

(١) مدخل إلى دراسة السنن الإلهية، صـــ٢٣، وانظـــر: الهجـــرة بـــين ســـنة الله الجاريـــة والخارقة، صـــ١٩.

يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها، والله تعالى يصطفي مـــن الملائكـــة رسلا ومن الناس، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فمن خصه بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك، فيســـتدل بتلـــك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة، وتلك سنته وعادتـــه في أمثاله؛ يميزهم بخصائص يمتازون بها عـــن غيـــرهم، ويعلـــم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الأنبياء مثلا، فلم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل آيات الأنبياء لغيرهم حتى يقـــال: إنـــه خرق عادته ونقضها؛ بل عادته وسنته المطردة أن تلـــك الآيـــات لا تكون إلا مع النبوة والإخبار بها مع التكذيب بها أو الشـــك فيهـــا[1]. فالمعجزة شيء لا يخالف العقل ولكنه يخالف المألوف والمتواتر فـــي المحسوس، فإذا كان كل عمل من الأعمال خلقا مباشرا فـــي إرادة الله تعالى فلا فرق في حكم العقل بين مرفوع المعجزة ووقوع المشاهدات المتكررة في كل لحظة[2]. فالإعجاز لظواهر الكون لا يخرق الســـنن الجارية وإنما يمضي هو حسب قانون خاص به، لكن هنـــاك علاقـــة أكيدة بين السنن الجارية والسنن الخارقة.

العلاقة بين السنن الجارية والسنن الخارقة:

لاشك أن هناك علاقة وطيدة وعروة وثقى بين الســـنن الجاريـــة والسنن الخارقة، فإن السنن الجارية والسنن الخارقة يخرجـــان مـــن

---

(١) انظر:النبوات: ١/ ٢٣٣، وقدر الدعوة، صـــ٧٣، ٧٤ بتصرف واختيار.
(٢) الفلسفة القرآنية، للأستاذ العقاد، صـــ١٨، ط دار الهلال، بدون تاريخ.

مشكاة واحدة، ومصدر الجميع الله -سبحانه وتعالى- وما هذه الســنة وتلك إلا أثر الإظهار لأفعال الله تعالى، وإذا كانت الســنن الخارقــة تمضي على غير المألوف للناس، فإن السنن الجارية تمضي على مــا يألفون ويعرفون لذلك تعبدهم الله تعالى بالتعامل مع هذه السنن، وهــم يأثمون إذا قصروا في التعامل أو تركوها دون استفادة منها، فالمســلم المعاصر لا يعيش الآية في زمن المعجزات وإنما يعيش فــي زمــن السنن الجارية التي لا تتوقف ولا تتأجل، وهو مطالب شرعا بالتعامل مع هذه السنن الربانية ليثير الأرض ويعمرها ويحي الزرع والضرع، ويكون بحق خليفة الله تعالى في أرضه، فإن خيرات الله في الأصــل للمؤمن " **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**"[١] ولعل حديثا يأتي عن هذا الملمح فــي جانــب منهج التعامل مع السنة الربانية بإذن الله تعالى.

العلاقة بين السنن الربانية الجارية والإرادة الإلهية:

ولا يظن ظانٌّ أن السنن الجارية لأنها تجري بثبات واطراد أنهــا تجري من ذاتها أو أن فعلها فعل ذاتي، فهذا فهم غيــر صــحيح؛ لأن السنن الجارية على الرغم صفاتها هذه إلا أنها في النهاية مربوبــة لله تعالى، والمسلم مدرك أن شيئا لا يقع في الكون إلا بقــدر الله تعــالى (والحوادث كبيرها وصغيرها لا يمكن أن يحــدث إلا بــأمر الخلــق

---

(١) الأعراف: ٣٢.

المباشر من إرادة الله تعالى، فلا ينساق في العقل أن الحادثة تحــدث بفعل الأسباب أو النواميس ثم بفعل الإرادة الإلهية؛ لأن النـــاموس لا يملك وحده قدرة الانطباق والتوافق التي يسبب بها ألف حادث علـــى نسق واحد، ولا بد له من القدرة التي يتابع بها هذا التسبب مرة مـــرة وحادثا حادثا بلا فرق هنا بين الجملة والتفصيل، فلا فرق هنـــا بـــين الحادث الذي يقع مرة واحدة والحادث الذي يقع ملايين المرات، فكلها تتوقف في بادئ الأمر على إرادة الخلق والإنشاء[١].

* * *

(١) انظر الفلسفة القرآنية، صـــ١٧، بتصرف يسير.

المبحث الثالث

صيغ ورود السنن في القرآن الكريم

وردت لفظة سنة وسنن في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة فـــي إحدى عشرة آية، وقد جاءت على الصور الآتية:

أولا: جاءت (مفردة)، وأقصد بالإفراد ما يقابل الجمع، وذلك في الآيات التالية:

١ - **" قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ"** [الأنفال: ٣٨].

٢ - **"لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ"** [الحجر:١٣].

٣ - **" وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُـدَى وَيَسْـتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِـينَ أَوْ يَـأْتِيَهُمُ الْعَـذَابُ قُـبُلا"** [الكهف: ٥٥].

٤ - **" فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا.اسْتِكْبَارًا فِـي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُـرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا"** [فاطر: ٤٣، ٤٤].

٥ - **" سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَـكَ مِـن رُّسُـلِنَا وَلاَ تَجِـدُ لِسُـنَّتِنَا تَحْوِيلا"**[الإسراء: ٧٧].

٦ - " مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا" [الأحـــزاب: ٣٨].

٧ - " فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ" [غافر: ٨٥].

ووردت مجموعة في الآيات الآتية:

١ - +قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْــفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" [آل عمران: ١٣٧].

٢ - " يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَــبْلِكُمْ وَيَتُــوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [النساء: ٢٦].

ثانيا: وجاءت لفظة سنة مقطوعة أو غير مضافة فـــي الآيـــات التالية:

" قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَـــانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" ووردت مضافة في باقي الآيات الكريمة وإضـــافتها جاءت على صور:وردت فيها مضافة إلى الذين من قبلنـــا ط **سُـــنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ" " سُنَّةُ الأوَّلِينَ" " سُنَّتَ الأوَّلِينَ" " سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا" " سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" " سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ**

خَلَتْ" وهذا تصوير لورود كلمة سنة في القرآن الكريم. [١]

(١) انظر: مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثانية عشرة، العدد ٣١، ذو القعـــدة، ١٤١٧هـــ، إبريل ١٩٩٧، ص ٣٢، ٥٢.

م	كلمة سنة في الآيات	رقم الآية	اسم السورة	مكان نزولها	ترتيب النزول	ترتيب المصحف
١	" **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُــنَّتَ الأَوَّلِينَ**" " **فَلَــن تَجِــدَ لِسُــنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا**" " **وَلَــن تَجِــدَ لِسُــنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا**"	٤٣	فاطر	مكية	٤٣	٣٥
٢	" **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا**"	٧٧	الإسراء	مكية	٥٠	١٧
٣	" **وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**" " **لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَــتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ**"	١٣	الحجر	مكية	٥٤	١٥
٤	" **فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَــانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا**"	٨٥	غافر	مكية	٦٠	٤٠

م	كلمة سنة في الآيات	رقم الآية	اسم السورة	مكان نزولها	ترتيب النزول	ترتيب المصحف
	" سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ"					
٥	**" وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ"**	٥٥	الكهف	مكية	٦٩	١٨
٦	**" قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغَفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ"**	٣٨	الأنفال	مدنية	٢	٨
٧	**" قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"**	١٣٧	آل عمران	مدنية	٣	٣
٨	**" مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ**	٦٢	الأحزا	مدنية	٤	٣٣

م	كلمة سنة في الآيات	رقم الآية	اسم السورة	مكان نزولها	ترتيب النزول	ترتيب المصحف
	حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَــهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَــوْا مِن قَبْلُ....." " لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَــافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّــرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ" لَنُغْرِيَنَّـــكَ بِهِـــمْ ثُـــمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا" " سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا"		ب			
٩	" يُرِيـــدُ اللهُ لِيُبَيِّـــنَ لَكُـــمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِـــن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَـــيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"	٢٦	النساء	مدنية	٦	٤

م	كلمة سنة في الآيات	رقم الآية	اسم السورة	مكان نزولها	ترتيب النزول	ترتيب المصحف
١٠	**" وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَــرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا" +سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا"**	٣٣	الفتح	مدنية	٢٥	٤٨

وهذه خلاصة لأقوال المفسرين
في مدلول كلمة السنة في القرآن الكريم

نص الآية – وإسنادها	موجز أقوال المفسرين في معناها
١ - " **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ**" [آل عمران:١٣٧]	أ- ما جرى على المسلمين في أُحُد جرى مثله على الأمم السابقة. ب- ما سنه الله في الأمم من وقائع.
٢ - " **وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**" [النساء: ٢٦]	أ- طرائقهم الحميدة، واتباعهم شرائع الله التي يحبها ويرضاها. ب- طرائقهم لتقتدوا بهم.
٣ - " **قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**" [الأنفال: ٣٨]	أ- ما أحل بقريش يوم بدر، وبمن سبقها من الأمم. ب- بما مضى في الأمم السابقة من عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر.
٤ - " **لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ**	مضمون الأقوال الواردة في

موجز أقوال المفسرين في معناها	نص الآية – وإسنادها
معنى الآية (٣٨) الأنفال.	**الأوَّلِينَ"** [الحجر: ١٣]
مضمون الأقوال الـواردة فـي معنى الآية (٣٨) الأنفال.	٥- " **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا**" [الكهف: ٥٥]
مضمون الأقوال الـواردة فـي معنى الآية (٣٨) الأنفال.	٦- " **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأوَّلِينَ**" [فاطر: ٤٤]
أ- هكذا عادتنا في الـذين كفـروا برسـلهم، وآنوهـم بخـروج الرسول من بـين أظهـرهم أن يأتيهم العذاب. ب- أننا سننا هذه السـنة فـيمن أرسلنا قبلك: أنهم إذا أخرجوا نبيهم أو قتلوه لم يلبث العذاب أن يحل بهم.	٧- " **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا**" [الإسراء: ٧٧]
أ- هذا حكم الله -تعـالى- لـه وللأنبياء قبله، لم يكن يأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج.	٨- " **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُـنَّةَ اللهِ فِـي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ**

موجز أقوال المفسرين في معناها	نص الآية – وإسنادها
ب- هذه هي السنن القديمة في الأنبياء والأمم الماضية: أن ينالوا ما أحله الله لهم.	**قَدَرًا مَّقْدُورًا**" [الأحزاب: ٣٨]
أ- هذا حكم الله في جميع من تاب بعد معاينة العذاب: أنه لا يقبل منه. ب- أن الله سن هذه السنة في الأمم كلها: أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب.	٩-" **فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**"[غافر: ٨٥]
أ- هذه سنة الله وعادته في خلقه: أنه ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل. ب- من نصر أوليائه على أعدائه.	١٠- " **سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا**"[الفتح: ٢٣]

* * *

خلاصة واستنتاج

بالنظر في هذه الآيات الكريمة في هذه الجداول السابقة نستطيع أن نصل إلى الآتي:

أولا: أن لفظ السنة ورد مفردا ومجموعا.

ثانيا: أن لفظ السنة والسنن ورد في السور المكية والسور المدنية على حد سواء.

ثالثا: أن لفظ السنن لم يكن تعقيبا على موقف واحد أو حدث معين في السورة القرآنية، ثم تأتي لفظة السنة بعد ذلك بــل كانــت تأتي لفظة السنة بعد ورود حشد كبير من السنن والنـــواميس والقوانين الماضية، وغالبا ما يعقب ذلك جمع السنة؛ كقولــه تعالى في سورة آل عمران: " **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**".

رابعا: أن كلمة سنة المضافة إلى المرسلين أو الذين خلوا من قبلكم أحيانا تأتي مضمومة التاء (سنة)، وأحيانـــا مفتوحـــة التـــاء (سنت).

خامسا: أن السنة عندما كانت ترد مضافة إلى الأمم التي قد خلت من قبل "**وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**" فإنه قد يـــراد مـــن السنة ما شرعه الله لمن قبلنا من هذه الأمم الماضية أو الطرق الحميدة والعادات الرشيدة، والكيفية التي حققوا بهـــا أقـــوال

وتوجيهات أنبيائهم.

وعندما كانت تضاف إلى +**مَن قَدْ أَرْسَلْنَا**" فإنهـــا تكـــون بمعنـــى الشرع والمنهاج الذي سنه الله لهؤلاء الأنبيـــاء، أو أن هـــذه طريقـــة الأنبياء وعادتهم في تناول ما أحله الله لهم.

وعندما كانت تأتي مضافة إلى الله تعالى، فإنهـــا تكـــون بمعنـــى أحكامه ووقائعه وأحداثه التي جرت على المخالفين لأمره، والنـــاكثين لعهده، والمتنكرين طريقه المستقيم.

* * *

المبحث الرابع
موارد الســـــــــنن الربانيـــــــة

القرآن الكريم دستور البشرية ومنهاج حياتها، جعله الله تعالى آخر كلماته إلى أهل الأرض، تجمع فيه من الهدى والرشاد ما جعل الجيل السابق يقول: لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في القرآن.

إن القرآن الكريم ليس كتاب منطق ولا فلسفة بمعناها المعـــروف، إلا إنه سلك مع المخاطب لإقناعه وإرشاده والأخذ بيده إلى طريق الله المستقيم كل أسلوب " **إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَــذَابٍ شَدِيدٍ**"[(١)].

" **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَــمِيعٌ عَلِيمٌ**"[(٢)].

" **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّــا شَــاكِرًا وَإِمَّــا كَفُــورًا**"[(٣)]. " **وَهَــدَيْنَاهُ النَّجْــدَينِ**"[(٤)] حتى عرف عن منهج القرآن الكريم فـــي الإقنـــاع أنـــه

---

(١) سبأ: ٤٦.
(٢) البقرة: ٢٥٦.
(٣) الإنسان: ٢.
(٤) البلد: ١٠.

للعرض لا للفرض، وللتعامل مع العقل لا لإكراه العقل على غير مـــا يريد، وليس أدل على ذلك من تكرار لفظ اللب والعقل والفكر، والنُّهى والذكر والعلم ومشتقاتها في القرآن الكريم عشرات المرات.

بل إن الأمر أبعد من ذلك وأدق؛ لقد جعــل الإســـلام (والقـــرآن مصدره الأول) العقل مناط التكليف ومرتكز الأمر والنهي، فـــإذا زال العقل سقط التكليف حتى كتب علماء الأصول بابـــا طويـــل الـــذيول والأكمام في هذا المقصد، سموه (عوارض الأهلية) أي الأشياء التـــي تعرض للمكلف فتزيل أهليته للتكليف.

ومن أول هذه العوارض زوال العقل.

ومن الأساليب الإقناعية التي استخدمها القرآن الكريم الإرشاد إلى مصارع الغابرين، وذكر الوقائع التي جرت عليهم، والأحـــداث التـــي حلت بهم من بؤس ونعم وخير وشر، فكثر في القرآن الكريم الأمـــر بالسير في الأرض والاعتبار بمصارع الغابرين وأحوال الماضـــين. وتستطيع أن تقول: إن موارد السنن الربانية في القرآن الكريم تكمـــن في المظاهر الآتية:

أولا: القصص القرآني:

والقصص القرآني أحد الأساليب والوســـائل التـــي اســـتخدمها القـــرآن الكريم لنقل العظة والعبرة من الماضي السحيق إلى الحاضر المعاش، ولـــه أهداف سامية وفوائد عالية رائعة، وهو لون من ألوان اختزال الخبرة التـــي

حدثت لأقوام مضوا إلى أناس آخرين حتى خوطبوا هذا الخطــاب لينتفعــوا ويعوا ويعيشوا على فوائد هذا الذي حدث لمن قبلهم، وقد ورد فـــي القــرآن الكريم جانب ليس باليسير من القصص، وهو أحد الأحرف الســبعة التـــي نزل عليها القرآن الكريم على رأي بعضهم.

وللقصة في القرآن أثر أي أثر في تثبيت المعنى وتجسيد الصورة وإظهار المراد، والإرشاد إلى مواطن العظة والعبرة، وهي تختلف في القرآن الكريم عنها في حياة الأدباء والروائيين؛ فالقصة فـــي القــرآن قصة حقيقية واقعية وإن لم تكن تعني من التاريخ بالجانب الذي يجعلها تاريخية صرفة.

ومن أبرز أهداف القصة في القرآن الكـــريم: «بيـــان أن دعـــوة الرسول متفقة في أصولها مع دعوة من سبقه من الرسل، وتثبيت فؤاد النبي وتقوية عزيمته في المضي إلى الدعوة رغم ما يلاقيه مـــن أذى واضطهاد، فما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله، وإن يكذبوه فقـــد كذبت رسل من قبله، وإن يؤذوه فقد صبر الرسل من قبله علـــى مـــا كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله تعالى، ولا مبدل لكلمات الله.

كما أن من فوائدها تثبيت فؤاد المسلمين المؤمنين، وغرس الثقـــة في نصر الله تعالى في نفوسهم وتسليتهم عما أصابهم بما آلـــت إليـــه حال المؤمنين السابقين وحال أعدائهم الكافرين، وإظهار العظة والعبرة

لكل من المؤمنين والكافرين على حد سواء»[1].

إن المساحة التي شغلتها القصة القرآنية من كتاب الله تعالى كانت مساحة واسعة ما نظن أن موضوعا آخر كان له ما كان للقصة مــن نصيب؛ فالقصص القرآني لا يقل الحيز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد، (وستبقى القصة القرآنية الشعلة التي تضيء لهذا الإنسان لتصل حاضره بماضيه، وستبقى النعمة الربانية التي تشــرف بها النفس وتعم القلب، وستبقى الوثيقة الوحيدة الصادقة الخالدة التــي يطمئن الإنسان لمصداقيتها)[2].

من هنا كان الجانب القصصي أغزر الجوانب في القرآن الكــريم عناية برصد السنن الماضية، والنواميس السارية في اللاحقــين كمــا سرت في السابقين.

ولقد توفر للقصص القرآني ما يجعله يمضي في نفس الخط الذي يمضي فيه قانون الله تعالى في السنن؛ فالناظر للقصة في القرآن يجد أنها تأتي عارية عن المثبتات إن صح التعبير التي تجعلهــا خاصــة بزمان معين أو مكان محدد أو أفراد مخصوصين.

---

(١) انظر في ذلك: اللآلئ الحسان في علوم القرآن، صـــ٢٦٩ وما بعدها، للأســتاذ الــدكتور موسى شاهين لاشين بتصرف واختصار. وانظر كذلك في هذا المعنى (مباحث في علوم القرآن)، للشيخ مناع القطان، صـــ ٣٠٢، مكتبة وهبة.

(٢) انظر: القصص القرآني.. إيحاؤه ونفحاته، للدكتور فضل حســن عبــاس، ص ١٠، ١١، بتصرف واختيار، ط دار الفرقان، ط الثانية ١٤١٣هـــ، ١٩٩٢م.

فإنها لا تتعرض حتى لذكر العلامات الظاهرة التي تجعل القصـــة قصرا على صاحبها؛ بل يتعدى مفعولها وفائدتها إلى كل من انطبقـــت عليهم صفات صاحب القصة.

أضف إلى ذلك أن كل قصة ترد في القرآن الكريم تعقب بآيـــة أو آيات قليلات فيها خلاصة القصة، وتسرية معانيها وفوائدها إلى التالي من بعد.

وقصة يوسف -عليه السلام- على طولها وعرضها تختم بقولـــه تعالى: " **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَـــا كَـــانَ حَـــدِيثًا يُفْتَرَى ولَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى ورَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**"(١). وكل موقف من مواقف القصة يعقبه تعقيب ســـريع لقوله تعالى عقب الحديث عن التقاط يوسف وأخذ السيارة له " **وَقَـــالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْـــوَاهُ عَسَـــى أَن يَنْفَعَنَـــا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِـــي الأَرْضِ ولِنُعَلِّمَـــهُ مِـــن تَأْوِيـــلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**"(٢) فقوله تعالى: " **وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**" كأنها قانون مطرد وسنة عامـــة بعـــد الحديث عن جانب من جوانب قصة يوسف عليه السلام، وكقوله تعالى في السورة الكريمة نفسها بعد الحديث عن نجاة يوسف من شَرَك امرأة العزيز: " **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْـــهُ بِالْغَيْـــبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْـــدِي كَيْـــدَ**

(١) يوسف: ١١١.
(٢) يوسف: ٢١.

الْخَائِنِينَ"[1] بما يشبه أن يكون قاعدة عامة " **وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**".

وكذلك قوله تعالى: " **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**"[2]. وذلك بعد الحوار الذي دار بين يوسف -عليه السلام- وإخوته وإظهار أمره عليهم، وانتصار الحق على الباطل.

وإذا انتقلنا إلى مَثَل آخر نجد قصة قارون تختم بقوله تعالى: " **تِلْكَ الدَّارُ الآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**"[3] وذلك بعد القصة التي حوت حلقات من الصراع بين الحق والباطل، وحوارات دائرة مائرة بين الذين يريدون الحياة الدنيا والذين أوتوا العلم إلى غير ذلك، وهكذا كل قصة من القصص القرآني تمضي على هذا الطريق وتنسج على نفس المنوال.

«ذلك أن أحداث التاريخ تتكرر وتتشابه إلى حد كبير؛ لأن وراءها سنن ثابتة تحركها وتكيفها، ولهذا قال الغربيون: التاريخ يعيد نفسه. وعبر العرب عن هذا المعنى بقولهم: ما أشبه الليلة بالبارحة. وأفصح عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: +**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ**

(١) يوسف: ٥٢.
(٢) يوسف: ٩٠.
(٣) القصص: ٨٣.

النَّاسِ"(١).

وقد أشار إلى تشابه المواقف والأقوال والأعمال نتيجــة لتشــابه الأفكار والتصورات التي تصدر عنها، وفي هذا جاء قوله تعــالى: " **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**"(٢) وقال عن مشركي مكة: " **كَــذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَــالُوا سَــاحِرٌ أَوْ مَجْنُــونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**"(٣)(٤).

ولذلك فإن القرآن الكريم يكثر في قصصه الأمر بالعظة والاعتبار والسير والنظر، وإعطاء النظير حكم نظيره؛ ذلك لأنه يحدث للاحــق ما حدث للسابق في عموم واطراد.

ومن ذلك قوله تعالى: " **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُــمْ يَتَفَكَّــرُونَ**"(٥) "**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**"(٦).

وقوله تعالى بعد الحديث عن عدد من صور الصراع بين الحــق والباطل، وذكر مجموعة من أحداث الأمم الماضية وفعل الله تعــالى

---

(١) آل عمران: ١٤٠.
(٢) البقرة: ١١٨.
(٣) الذاريات: ٥٢، ٥٣.
(٤) مدخل إلى دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم، صـــ٥١، مرجع سابق.
(٥) الأعراف: ١٧٦.
(٦) هود: ٤٩.

بهم: " **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ**"(١).

وفي التعقيب على موقف بني النضير في سورة الحشر يقول تعالى: " **يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**"(٢).

من هنا أخذ علماء الأصول من هذه الآية وأخواتها دليلا على مشروعية القياس وإعطاء النظير حكم نظيره، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تعقب على قصة أو حادثة بالأمر بالنظر والاعتبار.

ثانيا: المثل القرآني:

والمثل والأمثال في القرآن أحد الأساليب الإقناعية التي استخدمها القرآن في عرض قضيته على الناس، وطرح فكرته على البشر.

والمثل أيضا كالقصة في تأثيرها في نفس السامع والقارئ؛ بل قد

---

(١) هود: ١٠٠ – ١٠٣.
(٢) الحشر: ٢.

يكون وقعها أسرع ونمطها أمضى لما في التركيبة اللغوية للمثل مـــن سهولة في الصياغة وقوة في الأداء واختزال فـــي المعنـــى.. «وفـــي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها، وانقيادها لما ضرب لها مـــن الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثـــال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا؛ فالأمثال شواهد المعنى المراد ومزكية له"[(١)]

فالمثل لون من ألوان التعبير يختص بسمات تجعله في هذه المنزلة العالية من التأثير في النفس وإصابة غرضه ومبتغاه، (فهي تجمع إلى إيجاز اللفظ إصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية، فهو في نهاية البلاغة) [(٢)].

ومن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم فخـــاطبهم بها ليعقلوا ويدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة، ومـــن عقل الأمثال سماه الله في كتابه (عالما)[(٣)].

وذكر رائد البلاغة عبد القاهر الجرجاني أن التمثيل (إذا جاء فـــي أعقاب المعنى كساها أبهة وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلـــوب إليهـــا، واستثار بها من أقاصي البلاد والأفئدة صبابة، وكلف وقر الطباع على

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ٢٣٩/١.
(٢) مجمع الأمثال، المقدمة.
(٣) الأمثال من الكتاب والسنة، للحكيم الترمذي، ج١ ص ٢، دار التراث، تحقيق د/ محمـــد علي البيجاوي.

أن تعطيها محبة وشفافا، فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم وأنبـــل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف وأسرع للإلــف، وأجلــب للفــرح وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بعز المواهب والمنائح، وأسير على الأنس وأذكر وأدلي بأن تعلقه القلوب، وأجــدر وإن كان ذما كان مسه أوجع وميسه ألذع، ووقعه أشد، وحَــدّه أحــد. وإن كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهــر. وإن كان افتخارا كان شأوه أبعد، وشرفه أجد، ولسانه ألد.

وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب وللســخائم أسل، ولضرب الغضب أقل، وفي عقد العقود أنفث، وعلــى حســن الرجوع أبعث.

وإن كان وعظا كان أشفى للصدر وأدعى للفكر، وأبلغ في التنبيــه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغاية ويبصر الغايــة، ويبــرئ العليــل، ويشفي الغليل[(١)].

وقد حرصت على ذكر كلام إمام البلاغة وأسرارها عبد القــاهر الجرجاني لروعة تصويره لفوائد المثل التي لا تحصى وثماره التي لا تنتهي.

وقد حرص القرآن الكريم على تصوير معانيه وعرض قضــاياه

(١) أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، بتعليق السيد رشيد رضا، صـــ٨٤، ٨٨، ط محمد علي صبيح، ط السادسة ١٣٧٩هـــ، ١٩٥٩م.

بأقرب صورة وأوضح سبيل، فجاءت أمثاله متكاثرة بأنواعها المختلفة وصورها المتعددة، وتضمنت هذه الأمثال بتركيبتها المعروفة عددا من السنن الثابتة والقوانين الماضية، حتى لا يكاد يخلو مثل مـــن أمثـــال القرآن الكريم من الإشارة إلى سنة أو التعقيب على قـــانون، ولـــم لا وأصل وظيفة المثل في مضربه تصوير حالة حاضرة بحالة ماضـــية، وإعطاء اللاحقة حكم السابقة لتشابه أطرافها واتحاد أحوالها. وكثر في القرآن ضرب الأمثال وكثر ربطها بالعظة والاعتبار؛ فقد ورد المثـــل في القرآن الكريم ما يزيد على مائة مرة، وهذا بلفظ المثل صـــراحة عدا الصور الأخرى التي ورد عليها المثل في القرآن الكريم، ودعـــا القرآن الكريم إلى الاعتبار بالأمثال فقال تعالى: " **وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**"[1] " **وَتِلْكَ الأَمْثَـــالُ نَضْـــرِبُهَا لِلنَّـــاسِ لَعَلَّهُـــمْ يَتَفَكَّرُونَ**"[2]، " **وَتِلْـــكَ الأَمْثَـــالُ نَضْـــرِبُهَا لِلنَّـــاسِ وَمَـــا يَعْقِلُهَـــا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**"[3].

ومن الناحية التطبيقية كثر ورود الأمثال في القرآن الكريم، وكثير كذلك ربطها بالعبرة والعظة، ومن ذلك قوله تعالى في رصد سنة شكر النعمة وكفرها: " **وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّـــةً يَأْتِيهَـــا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُـــوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُـــولٌ مِّـــنْهُمْ فَكَـــذَّبُوهُ**

(١) سورة إبراهيم: ٢٥.
(٢) الحشر: ٢١.
(٣) العنكبوت: ٤٣.

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"[1].

وفي موطن الصراع بين الحق والباطل يقول تعالى: " **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ"**[2] وهي رصد لحلقة من حلقات الصراع بين الحق والباطل يجعلها القرآن الكريم في صورة ضرب المثل، وتختم الآيات الكريمة بقوله تعالى: " **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ"**[3]، وهذه سنة الله تعالى في إهلاك الظالمين إلى غير ذلك من الآيات التي تصور سنة الله تعالى في الأمم والأفراد في صورة المثل، أو يأتي المثل فيها ممهدا لسنة من السنن الربانية.

من هنا يمكننا أن نقول: إن ضرب المثل في القرآن الكريم مورد من موارد السنن الربانية وموطن من مواطنه.

ثالثا: الآيات التي ورد فيها الأمر بالسير في الأرض للنظر والاعتبار:

والأمر بالسير في الأرض والدعوة إليه ورد في القرآن الكريم مرات متعددة تزيد على أربع عشرة مرة؛ مرة في صورة تحضيض

---

(١) النحل: ١١٢-١١٤.
(٢) يس: ١٣-٢٩.
(٣) يس: ٣١-٣٢.

على السير، وإنكار لعدمه في ست مرات منها قوله تعـــالى: " **أَفَلَــمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْــمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّــدُورِ**"(١) فكان الدافع إلى السير النظر والتعقل، ومن معاني العقل الــربط؛ أي ربط المعنى والعظة الماضية والانتفاع بها في الأوقــات الحاضـــرة، ومن هنا نعى الله تعالى على الأبصار التي لا تعي، وأثبت أنهــا قــد ترى لكنها لا تعقل، وقد تكون مفتوحة وترى لكنها لا تنتفع +**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**".

وتأتي بعد هذه الآية الكريمة سنة من سنن الله تعالى في الخلــق، وهي سنة عدم إخلاف الله وعده ووارده بعد الحديث عن تكذيب قــوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصــحاب مــدين وقــوم موسى، والقرى التي أهلكت وهي ظالمة.

وكذلك قوله تعالى في سورة الروم: " **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِــي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَــا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**"(٢).

فالآية الكريمة تغري الناس بالسير في الأرض والنظر في عاقبــة الذين من قبلهم، وما كان لهم من قوة أشد من قوتهم وآثــارهم التـــي

(١) الحج: ٤٦.
(٢) الروم: ٩.

عمروا بها الأرض، وقد جاءتهم الرسل بالبينات فما ظلمهم الله ولكــن ظلموا أنفسهم بتنكبهم الطريق المستقيم والصــراط الســوي، والآيــة الكريمة واردة بعد سنة من سنن الله تعالى في الخلــق وهــي ســنة النصر؛ فقد تحدث صدر السورة عن غلب الروم في أدنــى الأرض وأنهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، وذلك لأن الأمر كله لله من قبل ومن بعد، وهو الذي ينصر من يشاء فهو العزيــز الــذي لا يغالب الرحيم ينصر الحق على الباطل، إلى غير ذلك مــن الآيــات الكريمة التي تحث على السير في الأرض والتفكر فيها، وورد الأمــر بالسير صراحة في ست آيات كريمة، وقد عقب كذلك التعليــق علــى الغابرين ومهالك الظالمين، والتعقيب على سنن الله الماضية التي تطرد في الأمم والأفراد دون مجاملة ولا محاباة.

فمثلا في سورة النحل يقول الله تعالى: " **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُــلِّ أُمَّــةٍ رَّسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَــا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**"[(١)] والآية الكريمة واردة عقب الحديث عــن كــلام المشركين بأنه لو شاء الله ما عبدوا من دونه من شيء هم ولا آباءهم، ولا حرموا من دونه من شيء. وأتت الآية التالية لتأمر بالسير للتفكر في آثار الذاهبين، هؤلاء الذين لم يسمعوا إلا لقول الآباء والأجداد دون

(١) النحل: ٣٦، ٣٧.

تفكر في المراد فهمه، ويتبع ذلك حديث عن سنة الله تعالى في الهداية والإضلال.

وإذا انتقلنا إلى سورة النمل نجد قوله تعالى: " **قُـلْ سِـيرُوا فِـي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**"[1] ورد الأمر بالسير في الآية الكريمة عقب عدد من القصص لأمم مضت كقوم صالح وسليمان وملكة سبأ وداود وقوم لوط، وتوسطت آية الأمر بالسير عـددا مـن السنن الإلهية كسنة الله في المكر والماكرين " **وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَـا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ**"[2].

وسنة الهداية: " **وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُّؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ**"[3].

وإذا وصلنا إلى سورة العنكبوت وجدنا قوله تعالى: " **قُلْ سِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِـرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"[4]، وذلك وارد عقب سـنة الله فـي الفـتن والابتلاء.

" **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ**

(١) النمل: ٦٩.
(٢) النمل ٥٠، ٥١.
(٣) النمل: ٨١.
(٤) العنكبوت: ٢٠.

فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ"[١].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدعو إلى السير وتأمر به، بما يمكنا معه أن نقول: إن الآيات التي أمرت بالســير فــي الأرض والتفكر في أحوال أهلها، والنظر في أمورها مورد من موارد الســنن الربانية في القرآن الكريم.

***

(١) العنكبوت: ٢-٣.

المبحث الخامس

صور التعبير عن السنن الربانية في القرآن الكريم

في مباحث سابقة تحدثنا عن صيغ ورود لفظ السنن فـــي القــرآن الكريم وموارد وجودها، ومواطن ظهورها في القرآن الكــريم مـــن القصص والأمثال، ومواطن الأمر بالسير في الأرض والنظر والتفكر، وفي هذا المبحث نتناول صور التعبير عن السنن الربانية في القــرآن الكريم، وهذه الصور يمكن رصدها كالتالي:

الصورة الأولى:

أن ترد لفظ السنة صراحة في الآية الكريمة، وقد سبق أن عرفنـــا أن لفظ السنة ورد في القرآن الكريم في ثماني عشرة مرة في إحـــدى عشرة آية بصيغ متعددة سبق أن عرفناها.

الصورة الثانية:

أن ترد السنة في القرآن الكريم في صورة يرتبط آخرها بأولهـــا ارتباط الشرط بالمشروط، أو العلة بالمعلول والسبب بالمسبب، وقـــد كثر ذلك في القرآن الكريم كقوله تعالى: " **إِن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُــرْكُمْ**

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ"[١] وذلك في سنة النصر، وقوله تعالى: " **وَلَوْ أَنَّ أَهْــلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَــاءَ مَــا يَعْمَلُونَ**"[٢] في قانون الفتح في الرزق ونحوه: " **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُــرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَــذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**"[٣].

وقوله تعالى: " **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيــدَنَّكُمْ وَلَــئِنْ كَفَــرْتُمْ إِنَّ عَــذَابِي لَشَدِيدٌ**"[٤] وذلك في سنة شكر النعمة وكفرها.

وكقوله تعالى: "**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**"[٥] وذلك في سنة الله تعالى في الإهلاك وقوله: " **وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَــوْقَ بَعْــضٍ دَرَجَــاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ**"[٦] في سنة التفاوت بين الناس، وقوله تعالى: " **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَــا الْقَــوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**"[٧] في سنة الله تعالى في الترف والمترفين.

---

(١) محمد: ٧.
(٢) المائدة: ٦٥، ٦٦.
(٣) الأعراف: ٩٦.
(٤) الإسراء: ١٦.
(٥) إبراهيم: ٧.
(٦) الكهف: ٥٩.
(٧) الأنعام: ١٦٥.

وقوله تعالى: " **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى.وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**"(١) في سنة الهداية والإضلال. وقوله تعالى: " **وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**"(٢).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي ترد في هذه الصورة؛ صورة ارتباط الشرط بالمشروط، أو العلة بالمعلول، والسبب بالمسبب.

الصورة الثالثة:

ورود السنة مرتبة على فعل البشر وسلوكهم، ومرتبطة به ارتباط الحال بصاحبه والصفة بالموصوف والغاية بالمغيا، فمن وروده بصورة الحال قوله تعالى: " **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**"(٣)، وقوله تعالى: " **وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**"(٤)، " **ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**"(٥)، " **وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ**

(١) طه: ١٢٣-١٢٤.
(٢) البقرة: ٢٥١.
(٣) هود: ١١٧.
(٤) القصص: ٥٩.
(٥) الأنعام: ١٣١.

وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ"[١].

ومن ورود السنة مرتبطة بالسـلوك البشـري ارتبـاط الصـفة بالموصوف قوله تعالى: " **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَـتَهَا**"[٢]، وقوله: " **كَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَـةً وَأَنشَـأْنَا بَعْـدَهَا قَوْمًـا آخَرِينَ**"[٣]، " **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَـى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ**"[٤]، " **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِـيَ أَشَـدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ**"[٥] إلى غير ذلك. ذلك.

وأما ربط السنة بفعل البشر ارتباط الغاية بالمغيا فورد فـي مثـل قول الله تعالى: " **إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**"[٦]، +**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا**"[٧] " **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**"[٨].

الصورة الرابعة:

ورود لفظة (كذلك) في سياق قصة أو تعقيب عليها، أو في الحديث

---

(١) الأنفال: ٣٣.
(٢) القصص: ٥٨.
(٣) الأنبياء: ١١.
(٤) الحج: ٤٥.
(٥) محمد: ١٣.
(٦) الرعد: ١١.
(٧) الإسراء: ١٥.
(٨) الأنفال: ٥٣.

عن مشابهة تجمع الفعل الأول الذي وردت فيه السنة مع الفعل الثاني الذي تشابهت فيه الشروط وانتفت الموانع، ومن ذلك قولـــه تعـــالى: " **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**"(١) وكقوله تعالى في نهاية قصة أصحاب الجنة: " **كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**".(٢)

* * *

(١) يونس: ١٣.
(٢) القلم: ٣٣.

الفصل الثالث
العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية
المبحث الأول
خصائص السنن الكونية

السنن الكونية أثر من آثار إظهار أفعال الله تعالى في خلقه، وهي اللون الآخر والجانب الثاني من جوانب إبراز قدرة الله تعالى وعلمه وعزته وحكمته، وما اتصف به عز وجل من صفات قدسية كاملة.

وقد اتسمت هذه السنن التي نقصد بها الظواهر الكونية ومفردات العالم الذي نعيش فيه وننعم بخيره اتسمت بصفات متعددة، من أبرزها:

١ - التوازن والنظام:

فالكون يشهد بكل أجزائه على أن النظام أساس الكون من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة، وهذا النظام والتوازن دلالة من دلالات الكون ومظاهره على الله تعالى؛ فلقد أثبت العلم الحديث أن نظام تركيب الذرة هو نظام تأليف المجرة، مما يشعر بأن صانع الأولى والثانية واحد وهو الله تعالى، ولا يتوقف هذا التوازن المطلق والنظام البديع عند جانب من جوانب الكون؛ بل يشمل الجميع.

«فلقد توصل علماء دراسة الذرة إلى ما حير الألباب وأذهل العقول بتكوين هذا الكون والنظام الذي يحويه... والقدرة التي يتحدث

عنها إن نواة الذرة تحتوي على ٩٩.٩ من الوزن الذري، وقد وجـد كذلك أن الشمس تحوي ٩٩.٩ من وزن المجموعة الشمسية، فعرفـوا أن النواة في الذرة هي بمثابة الشمس في المجموعة الشمسية، ولوحظ كذلك أنه كما تدور الكواكب حول الشمس تدور الإلكترونات حول نواة الذرة؛ بل وجد ما هو أدق من ذلك، فالمسافة بين الإلكترونات بالنسبة لقطر الذرة معادلة لنفس المسافة بين الكواكب وقطر مجموعة الشمس.

وقوى التجاذب الناتجة من كهرباء الذرة بين البروتون الموجـب والإلكترون السالب هذه القوة التي تجعل الإلكترونات تسبح حول النواة تتبع نفس المعادلات الحسابية بالضبط لقوى الجاذبيـة بـين الشـمس وكواكبها، حتى قوى التجاذب التي تجعل الإلكترونـات تسـبح فـي مدارات دائرية وبيضاوية حول نواة الذرة هي نفسـها التـي تجعـل الكواكب تأخذ نفس المدارات في المجموعة الشمسية.

والقوة الهدامة التي تنتج من تحطيم الذرة والتي تمثلت في القنابل المدمرة التي عرفها البشر موجودة في الشمس بقدر يوازي ما تبلغـه الشمس من أضعاف الذرة(١).

وهذا التوازن والنظام المطرد بين مظاهر الكون لا يتوقف عند حد

---

(١) انظر: الله والعلم الحديث، صـ١٥٦، ١٥٧، دار الشعب ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م للأستاذ عبد الرزاق نوفل بتصرف يسير، وانظر خلق الإنسان بين العلم والقرآن ج٢ صـ٣٠٩، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦، للدكتور عبد الفتح طيره. وانظر أيضا القـرآن والعلم الحديث، د/ منصور محمد حسب النبي، صـ٢٢٧، ط الهيئة المصـرية العامـة للكتاب، ١٩٩١م.

ولا ينتهي عند نوع دون نوع من جوانب الكون، وهذا سر لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى السماء وما فيها والأرض وما عليها، وكثــر ربط هذه المظاهرة الواضحة بالسلوك البشري والفعل الإنساني وفــي كل يوم يكشف العلماء ما يجعلهم يزدادون إيمانا بالخالق الذي وضــع الميزان لكل ما خلق، وفي الحياة يستطيع أي مشاهد أن يلمس الاتزان الذي يظهر جليا فيما حوله. إن زوج الذباب العــادي ينــتج خمســا وعشرين مليونا من الذباب في العام، فكيف تكون الحال لــو عــاش الذباب أكثر مما يعيش؟!! ولو عمر الإنسان أو النبات أو الحيوان ولم يجر عليه ما يجري على الأحياء من الموت، فكيف تكون الحياة؟![(١)]

وإذا انتقلنا من جوانب الكون المشاهدة إلى خليفة الله في الكــون، إلى الإنسان نفسه، نجد أنه يجري عليــه هــذا النــاموس المنضــبط والقانون المحكم من قوانين الله في كونه في نظام واتزان. لقد أثبــت العلم الحديث أن كل فرد من الأفراد يأخذ نصف صــفاته مــن أبيــه والنصف الآخر من أمه، وكل من هذين يأخذ نصف صفاته من أبويه بالتساوي؛ إذ قد وجد أن كل نواة خلية بشرية تحتوي علــى ٤٨ مــن الكرموزومات فيما عدا خلايا البويضة والنطفة، فإنها تحتــوي علــى نصف هذا العدد، ويتم العدد بتزاوجهما. وهذه الكرموزومات تحــوي الجراثيم المورثة التي تعد أصل وراثة الإنسان للصفات، ولما كان كل من الأب والأم قد أسهم بعدد مساوٍ مــن الجــراثيم، فــإن الأب والأم

---

(١) السابق صـــ١٥٨، بتصرف يسير.

يتساويان لذلك في توريث الصفات للإنسان، ومن عجــب أن القــرآن الكريم قد قدر هذه النظرية قبل العلم بعشرات المئات من الســنين؛ إذ يقول في سورة مريم " **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَــا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**"(١) أي أن مريم لا يمكن أن تكون خاطئة أو آثمة؛ إذ لم تورث هذا الخطأ من الأب أو الأم؛ أي أن الصفات تورث مــن الأب والأم(٢).

من هنا نستطيع أن نقول: إن النظام والتوازن يمضــي فــي كــل مظاهر الكون وجوانبه من أصغر الأشياء إلى أكبرها، وهذا التــوازن ينسحب بطريقة مطردة على العلاقة بين الكائنات بعضــها بــبعض، ونلحظ في هذا الانسجام الساري بين أجزاء الكون بما فيه ومن فيــه روح العناية التي لا تغفل عن حفظ هذا الكون ورعايته.

وهذا التوازن بين عناصر الكون وشرائحه هو سنة الله تعالى التي دبر بها الكون وعليها أدار فلك نظامه الإلهي البديع، وهذا التوازن هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وهو الحق الذي خلقت بــه الحياة، ومن أبدع ما عبر به البيان القرآني من سنة الله العامــة فــي الكون ما لقن الله تعالى كليمه موسى -عليه السلام- في جواب التعنت الفرعوني إذ يقول حاكيا للســؤال والجــواب فــي أوجــز أســلوب إعجازي:"**قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ**

---

(١) مريم: ٢٨.

(٢) القرآن والعلم الحديث، صـــ١١٣، بتصرف يسير.

خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"(١).

والتعبير بـــ " **أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**" بيان لسنته تعالى في توازن عناصر كل مخلوق توازنا جرى على تقدير منسق محكـــم. والتعبيـــر بقوله (ثم هدى) بيان لسنة الله تعالى في توازن التمكين الذي أوتيه كل مخلوق في طرائق عيشه وضوابط حياته(٢).

وآيات القرآن الكريم توحي بهذا التوازن المطرد والنظام الـــدقيق الذي ينتظم الأشياء جميعها صغيرها وكبيرها على حد سواء، وتقـــع بعض التوجيهات القرآنية مرتبطة بهذا التوازن موقـــع المعلـــل مـــن التعليل، فيترتب على إدراك هذا التوازن إدراك عظمـــة فاعـــل هـــذا التوازن. واقرأ معي إن شئت قوله تعالى: " **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْـــرَجَ الْمَرْعَـــى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**"(٣).

إن الثناء على الله تعالى بعد الأمر بتقديس اسمه الذي انبثقت منـــه سننه الكونية في تدبير ملكه وتربية خلقه بأنه قدر خلق كل خلق وسواه في أوضاع عناصره تقديرا متوازنا مع سائر عناصر الكون والحياة، بيان لسنة الله تعالى في نظامه الأبدي للكون. والثناء على الله سبحانه بأنه قدر خلق كل من خلق وسواه في صورة لا تتكـــرر وهـــي فـــي

---

(١) طه: ٥٠.
(٢) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، للمرحوم الشيخ محمد الصادق عرجـــون،ص١٦، ط الدار السعودية، ط الثالثة، ١٤٠٤هـــ - ١٩٨٤م.
(٣) الأعلى: ١-٥.

موضعها من الحياة والكون، تؤدي مهمتها التـــي لا تؤديهـــا صـــورة أخرى في مخلوقات الله، بيان لسنة التوازن الأبدي في خلق الله، وبيان لارتباط حياة كل مخلوق في طريقة عيشه بطبيعته وخلقته التي أبـــدع عليها[١].

الإحكام والانضباط:

وإذا كانت الجوانب الكونية ومظاهر الحياة تمضي بنظام مطرد واتزان ثابت، فهي أيضا تمضي بإحكام وانضباط منقطع النظيـــر، هذا الإحكام الذي يقابل الاطراد في سنن الله في البشـــر وإن ظهـــر ذلك في الجوانب الكونية بصورة مادية صارخة لم يكن في جانـــب السلوك البشري واضح النتيجة للعيان، علـــى الأقـــل بهـــذه الحـــدة والصرامة. فالواقع الإنساني ليس منضبطا كواقع المادة؛ فالعنصـــر الروحي في تكوين الإنسان والإرادة الحرة جعلا هذا الواقع يتصف بكثير من الخفاء والغموض في العوامل والأسباب التي تنشأ عنهـــا الظواهر السلوكية، الأمر الذي يجعله عصيا عـــن الفهـــم اليقينـــي والاطراد الصارم؛ خاصة أن الإنسان هو أداة التحليل ومحلـــه فـــي وقت واحد، بينما في إطار المادة والكون؛ فالإنسان هو أداة التحليل أما المحلل فآخر منفصل عنه، وهذا لا يعنـــي أن حركـــة الإنســـان ونهوض الحضارات وسقوطها يسير بشكل عشوائي عبثي، خاليـــة من كل قانون ثابت؛ بل هي محكومة بقوانين عامة تحكم توجيهاتها

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، صـــ١٧، ١٨، مرجع سابق.

ومساراتها العامة[1].

وهذا الإحكام والانضباط الذي يسير في جوانـــب الكـــون يتســـم بالعموم والشمول فإذا نظرنا إلى نماذج من مظاهر هـــذا الكـــون أو بعض العمليات التي تحدث داخل هذه المنظومة الكونية مثل **الانصهار** الذي تتحول فيه المواد الصلبة إلى حالة سائلة، **والذوبان** الذي تتحول فيه المادة الصلبة إلى جزء من السائل، و**التجمد** الذي تتحول فيه المادة السائلة إلى حالة صلبة، و**الترسيب** الذي تتحول فيه المادة الذائبة إلـــى مادة صلبة، و**التبخير** الذي تتحول فيه السوائل إلى حالة غازية، وغير ذلك من العمليات الكثيرة التي تقوم وتتم في هذا الكون المنظم المحكم والمنضبط المتوازن.

إذا نظرنا إلى هذه العمليات أدركنا تمام الإدراك أن الكـــون قـــائم على الإحكام المتقن والانضباط التام، وصدق الله تعالى إذ يقول: " **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**"[2].

فلا يمضي ذلك بطريقة عشوائية عبثية «وإنمـــا يمضـــي حســـب قوانين وأحكام وقواعد تبينها كتب خواص المادة والفيزياء وغيرهـــا، مما يؤكد أن الذي قدر هذه التحولات المفيدة في أوصاف المادة إنمـــا قدر بنظام محكم دقيق يجعل هذه التحولات المفيدة نافعة ضمن خطـــة عامة حكيمة يسير عليها هذا الكون، كما أن هذه القوانين الحكيمة وهذه

(١) انظر مراجعات الفكر والدعوة والحركة، للأستاذ عمر عبيد حســـنة، صــــ٩. وانظـــر: مدخل إلى دراسة السنن الإلهية، صـــ ٤٢، مرجع سابق.
(٢) يس: ٣٨.

التحولات المقدرة تشهد أن ربها حكيم عليم خبير بصير[1].

إن هذا الانضباط التام والإحكام المطلق الذي لا يجد الإنسان فـــي جانب من جوانبه شيئا من فطور، هو ما جعل القرآن الكـــريم يلفـــت أنظار الناس إلى جوانب الكون ومظاهره، وجعـــل الله تعـــالى هـــذه الدلالات شواهد صارخة على استحقاقه للتنزه والتقديس "**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّـذِي خَلَـقَ سَـبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِـئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**"[2].

لقد أثبت العلم الحديث أن الأرض التي نعيش عليهـــا تبعـــد عـــن الشمس التي تبلغ درجة الحرارة علـــى ســـطحها ١٢ ألـــف درجـــة فهرنهيت بمقدار يبلغ ٩٢ مليون ونصف مليون ميلا، وتبعد عن القمر بمقدار ٢٤ ألف ميل، وهذه الأبعاد هي التـــي تكفـــي لتهيئـــة البيئـــة الصالحة للحياة بالصورة التي نعرفها علـــى الأرض؛ إذ لـــو قربـــت الأرض عن ذلك لاحترقت الأحياء التي عليها فـــي التـــو واللحظـــة، وانعدم منها كل كائن حي على الأرض، ولو قرب القمر أو بعد عـــن ذلك لغمر المد القارات بالماء ولأهلك الْجَزْر الحياة والأحياء.

---

(١) توحيد الخالق، للأستاذ عبد المجيد الزنـــداني، ج٢ صـــــ٢٩، ط دار المجتمـــع للنشـــر والتوزيع، ط الثانية ١٤٠٧هـــ، ١٩٨٧م.
(٢) الملك: ١-٤.

وتدور الأرض على محورها بسرعة ألف ميل في الساعة؛ أي ما يعادل مرة كل أربع وعشرين ساعة، ولو قل معدل دورانها عن ذلـــك لطال النهار بما قد يؤثر في النبات والأحياء صيفا وطال الليل، بما قد تتجمد بسببه السوائل شتاء، وبذلك تقل مسببات الحياة والتي لو زادت لانعدمت شيئا فشيئا[(١)].

إلى غير ذلك من الظواهر التي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن هذا الكون أساسه النظام المطلق والإتقان المتنــاهي والانضـــباط والإحكام، وفي ذلك كله: +**بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**َ"[(٢)]

ولقد رأيت في إحدى رحلاتي إلى كندا كيف تؤثر خطوط الطـــول والعرض في الوقت؛ فلقد صليت المغرب فـــي مدينـــة فرانكفـــورت بألمانيا، ولما رحلت إلى «كالجري» إحدى مـــدن كنـــدا وجـــدت أن الشمس ما تزال موجودة، وحدثني بعض الثقات هناك أن في أعـــالي كندا مناطق يطول فيها الليل في ساعات الشتاء ويقصر النهار بطريقة لا يمكن معها التعايش مع الحياة، وفي الصيف يطول النهار ويقصـــر الليل بنفس الطريقة، فسبحان الخالق الذي غمرت نعمه عباده رغم قلة شكرهم!!.

وانظر -رعاك الله- إلى كلام بعض علمـــاء الغـــرب عـــن

---

(١) انظر: الله والعلم الحديث، للأستاذ عبد الرزاق نوفل، صـــ٢١، ط دار الشـــعب، بـــدون تاريخ، بتصرف يسير.
(٢) آل عمران: ١٣٨..

المبدع الأعظم الذي نظم هذا الكون وأتقن صنعه، وهـــو العـــالم الهندسي كلوم هاناواي[1]: ليس العالم مـــن حولنـــا إلامجموعـــة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم، وبرغم اســـتقلال بعضـــها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة، وكل منها أكثر تعقيدا في كـــل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الإلكتروني الذي صـــنعته، فإن كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم فلا يحتاج ذلـــك الجهـــاز الفسيولوجي الكيماوي البيولوجي الذي هو جسمي والـــذي لـــيس بدوره إلا ذرة من ذرات هذا الكـــون اللانهـــائي فـــي اتســـاعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه.

إن التصميم أو النظام أو الترتيب أو سمها ما شئت لا يمكـــن أن تنشأ إلا بطريقتين، طريـــق المصـــادفة أو طريـــق الإبـــداع والتصميم، وكلما كان النظام أكثر تعقيدا بعد احتمال نشأته عـــن طريق المصادفة، ونحن في خضم هذا اللانهائي لا نســـتطيع إلا أن نسلم بوجود الله.[2]

والعالم الجيولوجي الغربي (داوسن) يقول: إن الإيمان بســـنن الله الكونية ضروري بالنسبة للمعنى الفلسفي لصلاة الإنسان ودعائه، فلو كان الكون قائما على الفوضى أو لو كان أمرا حتميا لا ســـبيل إلـــى

---

(١) هو مستشار هندسي يصمم العقل الإلكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم، تحرير جون كلومرمونما، ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيـــد سرحان، صـــ١١٣، ط الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالميـــة، ط الرابعـــة، ١٩٨٦م.

تعديله لما كان هناك مكان لصلاة الإنسان ودعائـــه، أمـــا إذا اعتقـــد الإنسان أن هذا الكون يقع تحت سيطرة إله مشرِّع حكـــيم رحـــيم لا مجرد مدبر لجهاز آلي، فإننا نتقدم إليه بالصـــلاة والـــدعاء لا ليغيـــر خطته العظمى وسننه، ولكن لكي يدبر بحكمته الواسعة ومحبتـــه لنـــا الأقدار بحيث تفي بحاجاتنا(١).

وأرى في هذا الكلام غناء أي غناء عن مزيد من الكلام في إثبات التطابق بين سنن الله في الكون وسننه في سلوك البشر؛ فكل يجـــري حسب ضبط وإتقان وإحكام، «فإذا كان للكون سننه المطردة وقوانينـــه الثابتة التي تحكم مسيرته وتضبط عوالمه من الـــذرة إلـــى المجـــرة؛ كقوانين الجاذبية والطفو والحرارة والبرودة وغيرها، فإن للمجتمعات الإنسانية قوانين عامة كذلك تضبط مسيرتها وتبـــين عوامـــل تقـــدمها وتقهقرها وبقائها وفنائها، هذه القوانين تتلخص في أن الله جعل بقـــاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل والعفة عن الشـــهوات، والالتـــزام بتعاليم الأنبياء، وجعل هلاكلها ودمارها في التخلي عنها سنة ثابتـــة لا تختلف باختلاف الأمم ولا تتبدل بتبدل الأجيال(٢)».

وخلاصة القول:

أن السنن الكونية أو ظواهر الحياة المادية بصرامتها وحدتها تقوم

(١) الله يتجلى في عصر العلم، صـــ١٠٩-١١٠.

(٢) مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم، بحث للدكتور صديق عبـــد العظـــيم أبـــي الحسن، ضمن مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثانيـــة عشـــر، العـــدد الحادي والثلاثون، ذي القعدة ١٤١٧هـــ - ١٩٩٧م.

على الاتزان الكامل والإتقان المحكم والنظام والانضباط، وفـــي هـــذه الصفات ما يتلاقى مع قانون الله تعالى في الخلق من عموم وشـــمول واطراد أو تبدل أو تحول.

***

المبحث الثاني
السنن الكونية والسنن الإلهية

لأهل النظر في القرآن الكريم والتفكر في الكون عبـــارات دالـــة يحسن بنا أن نقف أمامها وننعم بفيضها، من ذلك قولهم: لله كتابـــان، مسطور وهو القرآن ومنظور وهو الكون؛ فالكون قـــرآن منظـــور، والقرآن كون مسطور، والقرآن يمثل كلام الخبير، والكون يمثل فعـــل الخبير، ولا يخالف كلام الخبير فعله[1].

والمتأمل للكون والقرآن معا يجد هذا التطابق الذي يلفت النظـــر ويسترعي الذهن ذلك الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: "**سَـــنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَـــمْ يَكْـــفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**"[2].

(فالآفاق) الواسعة الفسيحة بما تحمل من قوانين ثابتة مطردة وسنن ماضية حاكمة جانب من جوانب الإعجاز الإلهي، الجوانب التي مـــن خلالها يصل الناس إلى الله تعالى. (والأنفس) بما لهـــا مـــن قـــوانين ضابطة تمضي عليها لا تشذ عن ضبطها ولا تنفلت عن سياجها جناح آخر لهذا اللون من ألوان الإعجاز.

---

(١) انظر: نظم الآلي من حكم الغزالي، جمع وإعداد د. رمضان خميس الغريب.
(٢) فصلت: ٥٣.

وأقصد بالسنن الكونية الظواهر الكونية التي أسس عليها الكون من سماوات وأراضين وذرات ومجرات وبحار، وبتعبير القرآن المعجـــز (آفاق).

وأقصد بالسنن الإلهية (موضوع البحث) النظام الإلهي في الأفراد والأمم والشعوب والمجتمعات، والناظر بين هـــذين المجـــالين يجـــد ارتباطا عجيبا وتناسقا بديعا **من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة.**

فقوانين الآفاق التي تحكم الكون بظواهره تخضع لثبات واطـــراد وشمول وحاكمية مهيمنة؛ فالماء يصل إلى الغليان عند درجـــة مائـــة، ويتجمد عند درجة الصفر، وهذا القانون ثابت لا يتغير ولا يتبدل؛ بل يعطي نتيجته لكل من يتعامل معه دون نظر إلى طبيعة مـــن يتعامـــل معه؛ ذلك لأنه قانون ماض على الجميع لا يحـــابي ولا يجامـــل ولا يستثني، وكما يمضي هذا النظام الإلهي في جوانب الكون الإعجازيـــة بثبات واطراد وعموم وعدم تبدل أو تحول يمضي أيضا في جوانـــب الحكم على أفعال البشر في الحياة، فإن مصدر هذه القوانين الكونيـــة وتلك القوانين الإلهية في الأمم والأفراد واحد وهو الله سبحانه وتعالى، وهناك ارتباط وتآخٍ بين المجالين، المجال الكوني بما فيه من جوانـــب الإعجاز والنظام والجانب البشري بما فيه من سلوك البشر وأفعالهم.

(وسنن الله بصفة عامة سواء أكانت كونية أم بشرية مرتبطة أشـــد الارتباط في وحدة نظامية يأخذ بعضها بِحُجَز بعض، وتتماســـك فـــي اتساق حتى تكوِّن نظاما كونيا متناسقا أبدع ما يكون التناســـق، يســـير

العالم في ظله بسماواته وأراضيه ومن فيهما وما فيهما، وما بين ذلك من خلق لا يعلم عدده ولا حقائقه إلا مقدره وخالقه، محكومـا بتلـك السنن الإلهية التي لا تحيد عن خطها المرسوم في لوح الأزل، وإنمـا عقول البشر هي التي قد تنحرف عن التناسـق الكـوني إفراطـا أو تفريطا، قصورا عن إدراك التناسق أو جموحا في ارتياد تلك الوشائج، فتتوهم وتتخيل ثم لا تلبث الحقائق الكونية في سنن الله أن تردها إلـى دائرة الحقيقة الكونية الكبرى " **إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْـدِهِ إِنَّـهُ كَـانَ حَلِيمًـا غَفُورًا**"[1][2].

ذلك أن الكل أثر فعل الله تعالى وقدرته سواء في الجانب الكـوني أو الجانب البشري. ولقد حرص القرآن الكريم على ترسيخ هذه الفكرة في أذهان أتباعه كما سنعرف ذلك بجلاء عما قريب؛ فحرص على أن يدركوا الترابط الموجود بين قوانين الله تعالى وقوانينـه فـي سـلوك البشر، فسنته تعالى في المجتمع جانب من جوانب الفكرة القرآنية التي بثها الله تعالى في آيات هذا الكتاب المبين نظاما اجتماعيا مترابطا إلى جانب سنن الله العامة في الكون التي تصور فلسفة القرآن فـي فهـم الحياة، كما تصور حكمته في نعوت الكمال لله تعـالى خـالق الحيـاة وفلسفة القرآن تجعل من الكون كله حقيقة واحدة طوى فيهـا خالقهـا

(١) فاطر: ٤١.
(٢) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، ص ١١ .

دلائل وجوده وبراهين وحدانيته وآيات قدرته وعلمه وحكمته، ووكــل إلى العقل البشري -تكليفا وتشريفا- الكشف عن هذه الدلائل والبراهين بما أودع فيه من قوة إدراكية غائصة وبما أمده به من عــون فتهديــه إليها وهذا المعنى هو خلاصة وعد الله تعالى لهذا العقل بالكشف عــن آيات الله في الكون، وصدق الله تعالى إذ يقول:" **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَــا فِــي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّــكَ أَنَّــهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**"[1][2].

وهذا التوازن الموجود في الكون كله بما فيه الإنسان من أصــغر ذرة إلى أكبر مجرة هو قانون يمضي على مفردات الكون بمظــاهره وآحاد الإنسان وسلوكه. ولقد حفل القرآن بالحديث عن هذا التــوازن الذي يطرد على الكون والإنسان جميعــا +**وَمَــا خَلَقْنَــا السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**"[3]، " **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِــهِم مَّــا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَــمًّى**"[4]، +**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**"[5]. وهكذا تمضي آيات القرآن الكريم في الربط بين الكون ومعطياته والنوع الإنساني ومفرداته دون فصل؛ فالجميع يصدر عن مشكاة واحدة، ويتفرع عن مصدر واحد.

(١) فصلت: ٥٢.
(٢) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، صــ١٥.
(٣) الحجر: ٨٥.
(٤) الروم: ٨.
(٥) الدخان: ٣٨-٣٩.

«والقرآن الكريم في حديثه عن آيات الله الكونيـــة يقـــرن الأرض بالسماء، ثم يتحدث عن شيء من عوالم السماء إبرازا لما فيه من سنن الله وآياته ودلائل قدرته، كما رأينا في حديثه عن الشمس والقمر فـــي قوله تعالى: " **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْـــبَحُونَ**"[١] فمستقر الشمس في جريها هو مدى سيرها الذي تنتهي إليه ولا تتجاوز في حركتها المقدرة لسبحها في فلكها الخاص بما يحقق التوازن بينهـــا وبين عالمها وسائر عوالم السماوات والأرض وما بينهما في تقـــدير العزيز العليم، وكذلك منازل القمر في سيره قربا وبعدا وصغرا فـــي رأي العين وكبرا، حتى إذا بلغ آخر منزل منها يرى دقيقا باهتا مقوسا كما هو قضية هذا التشبيه اللطيف الذي جاءت به الآية الكريمة توازن ثابت محكوم بسلطان السنن الإلهية، فلا تدرك الشـــمس فـــي جريهـــا لمستقرها القمر في سيره إلى منازله؛ لأن كلا منهما محكوم بســـلطان وضعه الخاص في نظام الكون، فإذا استوى الدليل بهذا العلم العلـــوي على باهر قدرة الله تعالى تنتقل إلى الحديث عن الأرض وألوان الحياة بها، وسيد الأرض الذي سخر الله له ما فيها من منافع هو الإنســـان؛ لأنه صاحب السلطان على كل ما سخر الله له من شيء، ومن هنا كان لا بد من اختصاص هذا الإنسان بنوع من السنن الإلهية يقـــيم عليهـــا

---

(١) يس: ٣٨-٤٠.

بناء حساباته بدءا وانتهاء[١].

وهذا الترابط الواضح لدى الناظر بين قانون الكون وقانون السلوك الإنساني من الظهور بمكان وعند التطبيق بين صـــفات وخصـــائص القانون الكوني أو النظام الإلهي في الكون والنظام الإلهي في ســـلوك البشر، سيتضح مدى الانطباق الكامل والتطابق الكلي بين هـــذا وذاك، والفرق بين نتائج القوانين الكونية والقوانين الإلهيـــة فـــي البشـــر أن الناظر لأول وهلة في القوانين الكونية يجد نتائجها واضحة صارمة لا تقبل التغيير ولا التبديل. ويظن صاحب النظر المتعجـــل أن القـــوانين الإلهية في البشر ليست كذلك، لكن عند التأمل نجد مدى التطابق الكلي بين قوانين الله في الكون وقوانينه في بني الإنسان، ولعل هذا ما يلفت النظر إلى الحديث القرآني عن مظاهر الكون وخلقه وقوانينه في ثنايا الحديث عن النظام الإلهي في البشر، وكثر الاستدلال بإتقان نظام خلق السماوات والأرض وما بينهما على أن لله حكمة في خلق المخلوقـــات وخلق نظامها وسننها وفطرها، بحيث تكون أحوالها وآثارها وعلاقـــة بعضها ببعض متناسبة مجارية لما تقتضيه الحكمة، ولذلك قال تعـــالى بعد بيان هلاك الأمم التي كذبت رسلهم: " **وَمَـــا خَلَقْنَـــا السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآَتِيَةٌ فَاصْـــفَحِ الصَّـــفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ**"[٢] ليبين لنا أن ذلك الجزاء الذي حل بها مناسب لتمردها وفسادها، وذلك بعد ذكر قصـــة قـــوم لـــوط

(١) انظر: سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، صـــ١٩، ٢٠.
(٢) الحجر ٨٥، ٨٦.

وأصحاب الأيكة وأصحاب الحِجْر، مما يدعو إلى التفكــر فـــي هـــذا الارتباط المحكم بين النواميس الكونية والنواميس الاجتماعية.

فإذا نظرنا مثلا في سورة الأنبياء نجد أنها تعني بهذا الربط بـــين مظاهر الكون الواضحة للعيان والتي تجري بحســبان وبـــــ (تقـــدير العزيز العليم)، وبين النظام الإلهي في سلوك البشر وأفعالهم، اقرأ إن شئت مثلا قوله تعالى: " **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُــونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًــا سُــبُلا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُــمْ عَــنْ آيَاتِهَــا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِــي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْــدَ أَفَــإِن مِّــتَّ فَهُــمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**"[1].

فهذه الشريحة الرائعة من آيات القرآن الكريم تجمع بين عدد مـــن مظاهر الكون وقوانينه:

١- كون السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله تعالى.

٢- وجود الرواسي التي تمنع الأرض من الميدان بالناس.

٣- جعل السماء سقفا محفوظا.

---

(١) الأنبياء: ٣٠-٣٥.

٤- خلق الليل والنهار.

٥- خلق الشمس والقمر.

٦- جعل الكل يَسْبح في فلك خاص لا يتعداه ولا يتحداه.

ثم تنتقل الآيات الكريمة دون أدنى مفاجأة إلى رصد جانب من جوانب السنن الإلهية في البشر، وهي:

١- سنة عدم التخليد للبشر.

٢- سنة التوفي لكل نفس.

٣- سنة الابتلاء بالخير والشر فتنة.

فهذا الترابط بين قوانين الكون وقوانين البشر ليست عبثاً ولا سدًى، ولكن (ذلك تقدير العزيز العليم) كما قال الله سبحانه وتعالى.

وإذا انتقلنا إلى سورة الحج بعدها -وهي سورة مدنية- وجدنا نفس الخيط الدقيق الذي يمضي في مفاصلها ويسري بين أعصابها كما يسري الدم الدفاق في عروق الإنسان، نجد قوله تعالى في تصوير سنة النصر والتمكين: " **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ**

الأُمُورِ"(١).

وتمضي الآيات الكريمة حتى يقول الله تعالى: +**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِــي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَــا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**"(٢).

ففي الآيات الأولى من ٣٩-٤١ يرصد الله -تبارك وتعالى- عــددا مــن السنن وهي:

١- سنة النصر لمن ظلم.

٢- سنة التدافع.

٣- سنة التمكين.

وفي الآية (٤٦) من السورة الكريمة التي تُعد تعقيبا علــى هــذا الرصد الكريم يلفت الله أنظار الناس إلى السير في الأرض (الآفاق)، والاعتبار بما فيها وما حدث عليها مــن أحــداث للأمــم الماضــية، والتعرف على قوانينها الضابطة ونواميسها الحاكمة.

وفي السورة نفسها رصد آخر وربط ثان بين نصــرة المغلــوب المظلوم المعتدى عليه وبين إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار فــي الليل، وذلك قوله تعالى: " **ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِــي**

---

(١) الحج: ٣٩-٤١.
(٢) الحج: ٤٦.

النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ"(١) والناظر في هذه الآيات الكريمة يجد هذا التوازي بين قوانين الكون وقوانين البشر، فصدر الآيات الكريمة يتحدث عن نصر الله تعالى لمن بغى عليه، وهذه سنة من سنن الله تعالى في خلقه يأتي بعدها عدد من الدعائم لهذا النصر أو إرشادات لطمأنة هذا المغلوب المظلوم وذلك في الصور الآتية.

١ - الأولى: ذكر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.

٢ - الثانية: ذكر أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل.

٣ - ذكر صورة الأرض الجرداء التي ينزل الله عليها الماء فتصبح مخضرة.

٤ - ذكر أن الله له ملك السماوات والأرض.

---

(١) الحج: ٦٠-٦٦.

٥- ذكر أن الله سخر للإنسان ما في الأرض، والفلك تجري في البحر بأمره.

٦- ذكر إمساك الله السماوات أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

فهذه الدلالات الساطعة والإرشادات القاطعة على قدرة الله تعالى على التغيير من حال إلى حال مدخل وبرهان على قدرته تعالى على نصر المغلوب وتمكين المقهور وتغيره من حال إلى حال.

وقد أبدع صاحب (التحرير والتنوير) بحق عندما ألمح إلى هذا الترابط البديع فقال: «والمناسبة الرابطة بين نصر الله من بُغِي عليه فصبر، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، هي الإيماء إلى تقلب أحوال الزمان؛ فقد يصير المغلوب غالبا، ويصير ذلك الغالب مغلوبا، فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدين على ضده، وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلا بتغليب مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة، وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها، والحاصل أنه لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرها على العكس حينا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي[١]. وهذا الربط رائع في إيضاح المشابهة بين تغيير حال المغلوب إلى الغالب بحال الليل يولج في النهار والنهار يولج في الليل فيما ذكرته الآيات الكريمة من إيلاج

(١) التحرير والتنوير، ٣١٥/١٧.

النهار في الليل وإيلاج الليل في النهار سنة كونية ونصر الله للمغلوب أيضا سنة إلهية؛ فالظاهرة الأولى ظاهرة طبيعية تمر بالبشر صـــباحا ومساء وصيفا وشتاء (الليل يدخل في النهار وهو يطول فـــي مـــدخل الشتاء، والنهار يدخل في الليل وهو يقصر عند مطلع الصيف. ويرى البشر هذه الظاهرة وتلك، من إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، فينسيهم طول رؤيتها وطول ألفتها ما وراءها من دقة النواميس واطرادها، فلا تختل مرة ولا تتوقف مرة وهي تشهد بالقدرة الحكيمة التي تصرف هذا الكون وفق تلك النواميس.

والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكـــررة حتـــى لا يمر الناس عليها غافلين، ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القـــدرة وهي تطوي النهار من جانب وتسدل الليل من جانب، وهـــي تطـــوي الليل من جانب وتنشر النهار من جانب في دقة عجيبة لا تختل، وفي اطراد عجيب لا يتخلف، وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغي وهـــو يدفع عن نفسه العدوان، إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل في النهـــار وإيلاج النهار في الليل، فكذلك يزوي الله سلطان المتجبـــرين وينشـــر سلطان العادلين، فهي سنة كونية، تلك السنة يمر عليها الناس غـــافلين كما يمرون على دلائل القدرة في صفحة الكون وهم لا يشعرون[(١)].

وهكذا تمضي الآيات الكريمة في رصد دلائل قـــدرة الله تعـــالى، ومن خلالها يتم التطابق بين السنن الكونية الثابتـــة التـــي لا تتخلـــف

(١) الظلال ج٤ ــ صـــ٢٤٤١، ط الشروق، ط الرابعة، ١٣٩٧هـــ، ١٩٧٧م.

والسنة الإلهية في الأمم التي لا تتخلف أيضا، وهذا وذاك مطروح أمام الناظرين، ولكن اعتياد الناس أمرا معينا ولو كان ملموسا محسوسا قد يذهلون عنه رغم اطراده وعدم تخلفه، ومن شدة الظهور الخفاء.

وإذا انتقلنا إلى (سورة المؤمنون) -وهي سورة مكية- وجدنا نفس التزاوج الرائع والمزيج الباهر بين دلائل القدرة الرائعة في الأنفس والآفاق واطرادها في قوانين الله تعالى في سلوك البشر؛ فقوله تعالى: " **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**"(١) فصدر الآيات الكريمة يتناول سننا ثابتة في الكون، **والإنسان مفردة من مفرداته:**

١ - خلق الإنسان من سلالة من طين.

٢ - جعله نطفة من قرار مكين.

٣ - جعل النطفة علقة.

٤ - خلق العلقة مضغة.

٥ - كساء العظام لحما.

٦ - إنشاءه خلقا آخر.

---

(١) المؤمنون: ١٢-١٦.

وتنتقل الآيات الكريمة بعد رصدها السنن الثابتة إلى الحديث عن:

١-سنة الله في الإماتة.

٢-سنة الله في البعث.

وهذه الآيات وسابقتها تمهيد بديع للحديث عن سنة الصراع بـــين الحق والباطل الممثلة في قصة نوح -عليه السلام- وموقـــف قومـــه، ويختم الأسلوب القرآني هذا كله بقوله تعالى: " **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ**"[(١)] بما يؤكد للناظر والدارس أن كل ما سبق هـــو آيـــات بينات ودلالات ظاهرات تمضي في الجانب الكوني كما تمضـــي فـــي الجانب البشري في تناغم واتساق.

وفي سورة النور –وهي مدنية- يمضي نفس النهج القرآني فـــي المزاوجة بين دلائل الله تعالى في الآفاق ودلائله في الأنفس، ويجمـــع هذا كله الآيات من ٣٨-٤٦ حيث تتحدث الآيات الكريمة عن جـــزاء الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وجزاء الذين كفروا، ووصف أعمالهم بالسراب الكائن بقيعـــة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفـــاه حسابه، وتمتد لتتناول الحديث عمن يسبح الله في السماوات والأرض، وإزجاء الله السحاب الذي يؤلف بينه ثم يجعله ركاما، وإنزال جبـــال البرد من السماء، وتقلبه تعالى الليل والنهار.

(١) المؤمنون: ٣٠.

وإذا انتقلنا إلى سورة النمل وجدنا تلك الآيات التي تتحــدث عــن قانون الله تعالى في المكر والماكرين في رصدها لقصة نبي الله صالح -عليه السلام- مع قومه ثمود، ويعقب القرآن الكريم بقوله: " **وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**"[(١)] وبعــد هذا وبعد الحديث عن قصة لوط -عليه السلام- وقومه تأتي مجموعة من الآيات الكونية التي هي من الظهور والبيان بدرجة لا يستطيع أن يتناساها ناظر، وهي في الآيات من ٥٩ إلى ٦٤، وقد شملت الآيــات الكريمة:

١- خلق الله للسماوات والأرض.

٢- إنزاله من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة.

٣- جعل الأرض قرارا، وجعل خلالها أنهارا، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزا.

٤- إجابته المضطر إذا دعاه، وكشفه السوء، وجعل الناس خلفــاء الأرض.

٥- هدايته للناس في ظلمات البر والبحر.

٦- إرساله الرياح بشرا بين يدي رحمته.

٧- بدؤه الخلق وإعادته إياه.

---

(١) النمل: ٥٠-٥٣.

٨- التكفل برزق الناس من السماء والأرض.

وفي حديث السورة نفسها عن قانون الهداية والضلال: " **إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُّؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ**"[1] بعدها بآيات يسيره حديث عن سنة كونية في قوله تعالى: " **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**"[2] وقوله: " **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**"[3].

وفي سورة القصص حديث للقرآن الكريم عن سنة الله تعالى في الإهلاك في قوله تعالى: " **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**"[4].

ثم تمضي الآيات الكريمة ترصد شبهات هؤلاء الغاوين وتصف حالهم في الآخرة، وعمى الأنباء عليهم فهم لا يتساءلون، حتى تأتي الآيات التي تكمل هذا الجانب في ناحية الكون وطلاقة قدرته تعالى فيه

---

(١) النمل: ٧٩-٨٠.
(٢) النمل: ٨٦.
(٣) النمل: ٨٨.
(٤) القصص: ٥٨-٥٩.

بقوله: " **وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآَخِـرَةِ وَلَـهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**"(١).

ومن هنا كثر تنبيه القرآن الكريم إلى النظر في الأرض والسماء، والامتزاج بين النظام الكوني في الخلق والإبداع والنظام البشري في السلوك والأفعال، حتى لا تكاد تجد آية تتحدث عن نظام خلق السماوات والأرض وإبداعها إلا ومعها حديث عما يخص النظام البشري كهذه النماذج السريعة:

١- " **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**"(٢).

٢- " **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ**"(٣)

٣- " **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**"(٤)

---

(١) القصص: ٧٠-٧٣.
(٢) الحجر: ٨٥.
(٣) الأنبياء: ٢١٦.
(٤) ص: ٣٨.

٤ - **" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ"**[(١)]

٥ - **" مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى"**[(٢)]

٦ - **" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ.لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ"**[(٣)]

وكذلك آخر سورة العنكبوت وصدر سورة الروم، وصدر سورة سبأ، وصدر سورة فاطر، وغير ذلك من الأمثلة التي يعي حصرها من أراد حصرها لغناها وكثرتها.

* * *

(١) الدخان: ٤٤.
(٢) الأحقاف: ٤٦.
(٣) الأنبياء: ١٦-١٨.

الفصل الرابع
منهجية التعامل مع السنن الربانية
المبحث الأول
الإنسان مهيأ لإدراك السنن الربانية

الإنسان خليفة الله في أرضه، استعمره فيها واستخلفه مــن قبلــه عليها، ومهد له سبل الانتفاع بها، ووسائل التعايش معها، وجعل كل ما حوله يخدمه ويؤازره، وزوده بملكات يدرك من خلالها ما حوله وهداه إلى سبل الانتفاع بها، وجعل ذلك نعمة من نعمه تعالى عليه، ومنة من مننه لديه؛ بل علة لتسبيحه تعالى فقال: " **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّــكَ الأعْلَــى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْــرَجَ الْمَرْعَــى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**" [الأعلى: ١- ٥].

وهيأ له من وسائل العلم والمعرفة ما يجعله أهلا لتلقي أوامــر الله تعالى وتنفيذ وصاياه، لذلك كثر في القرآن الكريم الأمر بالســير فــي الأرض والتفكر فيها والنظر في جنباتها والاتعاظ بأحوال أهلها، وتعدد في القرآن الكريم ألفاظ الذكر والفكر والنهي.

وهيأ الله تعالى الإنسان لإدراك مواطن صلاحه؛ بل عد ذلك نعمة من نعمه، ودليلا من الأدلة على الوصول إليه عز وجل: " **سَــنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَــمْ يَكْــفِ**

بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ". [1]

[إن الإنسان خليفة الله في الأرض، ومظهر لصفاته.. قال تعالى:" **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**" ثم جعله أفضل من جميع مظاهر القدرة " **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**"[2] وحتى يتمكن الإنسان من حمل هذه المسئولية منحه الله تعالى استعدادًا ماديا وروحيا وتنظيميًا وخلقيا " **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**" [التين: ٤-٧].

" **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**" [البقرة: ٣١].

[وقد ذكر المفسرون معاني عديدة للأسماء أنسبها قولهم: إنها علم حقائق الأشياء، والمراد بالعلم هنا العلم الإجمالي، وهو يشير إلى الصلاحية] [3].

وهذه الآية الكريمة: " **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**" تجعل المسلم يشهد طرفًا من هذا السر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة؛ سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها وهى ألفاظ منطوقة رموزًا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة، وهي قدرات ذات

---

(١) فصلت: ٥٣.
(٢) البقرة: ٣٠.
(٣) انظر: النظام الإلهي للرقي والانحطاط، لمحمد تقي الأمين، ترجمة د. مقتدى حسن الأزهري، صـ ١٢- ١٣.

قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض، تدرك قيمتها حين تتصور الصعوبة الكبرى لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمــز بالأســماء للمسميات والمشقة في التفاهم والتعامل حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه... إنها مشقة هائلة لا تتصور معها الحياة، وإن الحياة ما كانــت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القــدرة علــى الرمــز بالأسماء للمسميات[(١)].

فلا شك أن تعلم آدم للأسماء نوع من إعداده وتهيئته للقيام بمهمته في الأرض، ولولا هذا التعليم لأنواع الأشياء وأسمائها وخصائصــها لما تيسر له العيش في هذه الأرض ولا الانتفاع بخيراتها. والناظر في القرآن الكريم وآياته يرى أنها تأمر المسلم بل الإنسان بصــفة عامــة بالسير في الأرض والتفكر فيها، وفي دلائل قدرة الله تعالى من خلالها والنظر إلى السماء والوصول من خلال ذلك إلى مكونها وباني سمكها ورافعها بلا عمد تراها. لولا صلاحية الإنسان لهذا الإدراك لما أمــره الله تعالى بالسير والتفكير والذي كثرت الدعوة إليه في القرآن الكريم «لقد بين القرآن أن الكون وما به من الشمس والقمر وغير ذلك مسخر لخدمة الإنسان، وأن الإنسان منح الصلاحية لتســخير هــذه الأشــياء بالعقل والتجربة، حدث ذلك في الوقت الذي كانت الأديــان الأخــرى ترى الكون وظواهره أمرًا فوق القوة وشيئًا مقدسًا، وكانت تعبده على

---

(١) في ظلال القرآن، جـــ ٥٧/١، بتصرف يسير.

هذا التصور، وكانوا يرون أن دراسة الكون أمر مذموم بنـــاء علـــى تصور أن الله تعالى خلق الكون ثم منحه الشـــيطان للتصـــرف فيـــه، وكـــــانوا ينســــبون كـــــل مـــــن يشـــــتغل بهـــــذه الأمـــــور إلى الجن». [1]

والذي ينظر إلى العالم الغربي وموقفه من العلم والعلمـــاء فـــي العصور السابقة يدرك تمام الإدراك هذا المعنى؛ فالمحـــاكم التـــي نصبت لرواد العلماء في أوربا تظهر مدى كرههم للعلم والمعرفـــة، أما الإسلام وكتاب الإسلام فإن أول كلمة نزلت فيه كانـــت (اقـــرأ) وحث على النظر والانتفاع من الكون بصورة لم يسبق لها مثيل.

والسير في الأرض والتفكر في جنباتها يصل بالإنسان إلـــى فهـــم السنن وإدراكها والانتفاع بها، فالسير فـــي الأرض يتبعـــه الاتعـــاظ بمصارع الغابرين ووقائع الماضين، وعادته المتبعة في كـــل أولئـــك السابقين.

وهذا هو المراد من أن يكون الإنسان أهلا لإدراك السنن الربانية حتى يكون ذلك طريقًا لانتفاعه بها واتعاظه من خلالها.

* * *

(١) النظام الإلهي في الرقي والانحطاط، ص ١٤٩.

المبحث الثاني
العلم بالسنن الكونية طريق إلى معرفة السنن الربانية

إن الناظر في الكون وما فيه وأطرافه وخوافيه يدرك أنه آية تدل على الخالق وعلاقة ترشد إلى الملك الذي خلق فسوى، والــذي قــدر فهدى، وقد ورد في القرآن الكريم آيات وعبارات تغري بالتفكر فـــي الكون والانتقال من خلاله إلى المكون، حتى لا يكون المرء كحمـــار الحي ينتقل من مكان إلى مكان والذي انتقل منه هو الذي انتقل إليه.

والكون أحد الجناحين اللذين يسير بهما إلى مظاهر قدرة الله عــز وجل؛ أما الجناح الثاني فهو القرآن الكريم، والقرآن والكون يتلاقيـــان تلاقي أثرين لمؤثر واحد، وعنصرين يخرجان من مشكاة واحدة؛ فإن خالق الأول وصاحب الثاني واحد وهو الله سبحانه وتعالى.

(والعلم بسنن الله تعالى الكونية العامة طريق إلى العلم بســنن الله الخاصة في المجتمع البشري، ومعرفة تقلبات الحيــاة بـــه، ومعرفـــة تطوره ومعرفة عوامل هذا التطور، ومعرفة مدى سلطان هذه الســنن الإلهية على المجتمع؛ لأن العلم بهذه السنن عامة وخاصة هـــو القـــيم على توجيه الحياة وتعرفها بما وضع الله في خصائصه مـــن طاقـــات لتصوير الظواهر الكونية ودوافعها القريبة أو البعيـــدة، وهـــذا العلـــم بالسنن الإلهية هو الذي وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصـــدارة من الحياة يوم أن كان العلم بأوسع معانيه هو القائد لهـــذا المجتمـــع، فطاف آفاق السماوات والأرض نظارًا باحثًا ليستنشف الحقائق الكونية

من وراء السجف، يكشفها له القرآن ويهديه إلى أصولها.

والقرآن العظيم إذا تحدث عن سنن الله في المجتمع الإنساني فإنه يتحدث عنها كحلقة في سلسلة النظام الكوني القائم على التناسق بـــين عناصر الكائنات الوجودية تناسقًا تؤدي به عملها الذي تقتضيه طبيعة وجودها في مكانها من الحياة، فهو يتحدث عن نشأة هذا المجتمع نشأة استقلالية النوع ولكنه مرتبط أشد الارتباط بهذه الأرض يعيش عليها؛ لأنه بمادتها خلق وإليها بهذه المادة يعود " **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ**" [طه: ٥٥] وبهذا الارتباط يحقق التوازن بين عناصـــر بنائـــه بنـــاء اجتماعيا ينبع منه تفكيره وأخلاقه وطرائق عيشه ومراحـــل أطـــواره الاجتماعية صعودًا وإعزازًا في منازل الوجود المقدر له) [(١)]. والـــذي يتابع رصد الآيات القرآنية يرى لأول وهلة هذا الترابط بين ســـنن الله في الكون وسننه في النظام البشري، وهذا التمهيد من الأول للثـــاني، حتى لا يكاد يوجد حديث عن السنن الربانية أو نظام الله تعالى الـــذي يحكم سلوك البشر إلا ويسبقه أو يعقبه حديث عن نظام الله في الكون.

ومن هنا كان الأمر بعد الأمر في القرآن الكريم للإنسان مطلـــق الإنسان بأن يسير ويتفكر وينظر ويعتبر ويتأمل الأحـــداث الماضـــية والوقائع الجارية حتى يأخذ من أمسه ليومه ومن يومه لغده، وينتفـــع بتجارب السابقين.

وطريقة عرض القرآن الكريم لهذه الفكرة تلونت وتنوعت بـــأكثر

(١) انظر سنن الله في المجتمع، ص ٢٠-٢٦.

من نوع، وظهرت في أكثر من صورة؛ فمرة يتحدث القرآن الكــريم عن حلقة من حلقات الصراع بين الحق والباطــل، ويــأمر رســوله والأمة -في شخصه الكريم- باستخلاص العظة واســتلهام العبــرة؛ كقوله تعالى بعد أن قص طبيعة الصراع في قصة نوح عليه الســلام: **"تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِــن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ"**(١) ومرة يضرب للناس مثلا لعلهم يتفكرون، وثالثة يغري الناس بالتأمل في القوانين الماضــية والســنن الصارمة.

من هنا يمكننا أن نقول: إن هذا الترابط بين سنن الله فــي الكــون وسننه في المجتمع الأولى تمهيد للثانية، والثانية تصديق للأولى، فهما يخرجان جميعًا من مشكاة واحدة، والذي يعلم ســنة الله فــي الكــون بقوانينه الصارمة ينبغي أن يدله ذلك إلى سنن الله في المجتمع، فــإذا كانت بذرة لا تخرج بغير مقومات الحياة ولا تثمر من فــراغ، فــإن نصرًا لا يتحقق بدون أسبابه وصاحب الأمر والنهي في كل ذلــك الله رب العالمين. فالعلم بالسنن الكونية طريق إلى العلم بالسنن الربانية.

* * *

---

(١) هود: ٤٩.

المبحث الثالث
السنن الربانية من الفهم إلى التسخير ومن الإدراك إلى التوظيف

فهم السنن الربانية خطوة من خطوات الانتفاع بها والاستفادة منها، وإذا كنا نقول في مجال الحكم على الأشياء: إن الحكم علـــى الشـــيء فرع عن تصوره، فيمكننا أن نقول كذلك في ميدان السنن: إن فهمهـــا طريق إلى تسخيرها وإدراكها سبب إلى توظيفها، وإلا فأنى لإنســـان كائنًا من كان أن ينتفع بشيء لا يدرك كنهه ولا يســـبر غـــوره، ولا يعرفه على حقيقته، من هنا فإن أوجب ما يجب علـــى المســـلمين أن يفهموا أولا سنن الله في الحياة والأحياء، وأن يتعاملوا معها بعد ذلـــك على هذا الأساس، فإن أكثر المسلمين اليوم لا ينقصهم إخـــلاص ولا ينقصهم إيمان بقدر ما ينقصهم من فهم واع لقضايا الـــدين وتصـــور معطياته حتى في المفاهيم العامة للكلمات: الدين– العبادة– الحريـــة– التجديد– الإصلاح... إلخ. هذه المصطلحات ينقص المســـلمين فيهـــا الضوابط التي تتيح لهم فرصة الانتفاع بحقيقة هذه المفـــاهيم، ونعـــود فنقول: إن العلم بالسنن والتعرف عليها أول درجة من درجات حســـن التعامل معها، وهذا ما يسميه فقهاء الدعوة وروادهـــا (فقـــه الســـنن الإلهية)، فأول شرط من شروط التعامل المنهجي السليم مـــع الســـنن الإلهية والقوانين الكونية في الأفراد والمجتمعات والأمم هو(أن نفهـــم

أو نفقه فقهًا شاملا رشيدًا هذه السنن وكيف تعمـــل ضـــمن النـــاموس الإلهي، أو ما نعبر عنه بـــ (فقه السنن)، ونستنبط منها علـــى ضـــوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية)[1].

ومن هنا يقول الإمام البنا -رحمه الله- فيما يشـــبه الاختـــزالات العميقة للتجارب البشرية: (لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابـــة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها علـــى بعض، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد). [2]

ولقد رصد الأستاذ الشيخ البنا -رحمه الله- في هذه السطور القليلة حشدًا هائلا من القيم العالية والتوجيهات الرائعة التي هي بحق معـــالم وملامح لفقه السنن الربانية، ويمكن أن تستخرج من كلامه فـــي فقـــه التعامل مع السنن الربانية هذه الخطوات:

أولا: عدم المصادمة.

ثانيًا: المغالبة.

ثالثًا: الاستخدام.

رابعًا: التحويل.

خامسًا: الاستعانة ببعض السنن على بعض.

---

(١) انظر: حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة.. قراءة في فكر الإمـــام الشـــهيد حسن البنا، د. عبد الحميد الغزالي، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، بدون تاريخ.
(٢) انظر مجموعة الرسائل، رسالة المؤتمر الخامس ص١١٥.

سادسًا: ترقب ساعة النصر. وهذه الخلاصات وغيرهـا أعقبهـا الشيخ - رحمه الله- بقوله:

(فعلى هذه الدعائم القوية أسسوا نهضتكم، وأصلحوا نفوسكم، وركزوا دعوتكم، وقودوا الأمة إلى الخير، والله معكم ولن يتركم أعمالكم) [(١)].

وإذا أردنا أن نفصل هذه الخطوات وجدناها على النحو التالي:

١ - **عدم المصادمة**: ذلك أن الإدراك الحقيقي للسنن الربانية يجعل الإنسان بعيدًا عن مصادمتها، وكيف يصادمها وهـو يـدرك طبيعتها ويعلم سيرها وعدم تخلفها أو تبدلها وتحولها، من هنا فهو يتعامل معها على هذا الأساس تعامل الكيميائي مع المواد التي يعرف خصائصها ويدرك كنهها، والطبيب الذي يعـرف خصائص المرض وأنواعه فيشخص الداء ويصف الدواء بكل تجرد وحيادية.

٢ - **المغالبة**: والمغالبة تعني المفاعلة، ويراد بها هنا أن المسلم إذا كان لا ينبغي له أن يصادم السنن والنواميس ولا يقف أمامهـا فإنه مأمور بأن يغالبها ويوظفها لصالحه، ويجعل تيارها معـه لا عليه.

٣ - **الاستخدام**: وهو المقصود بالتوظيف بعد الإدراك والتسـخير

(١) انظر مجموعة الرسائل.

بعد الفهم، وهذا هو بيت القصيد؛ من فهم السنن الربانيـــة أن يصل بها في النهاية إلى درجة توظيفها له وانتفاعه بها؛ بـــل حسن التوظيف وحسن الانتفاع.

٤- **تحويل تيارها**: والمقصود من تحويل تيار السنن والنـــواميس الربانية أن يجعلها الإنسان تخدمه لا تستخدمه، وأن يغتنم قوتها وشدتها، وأن يجعل تيارها يجري في المسار الـــذي يخدمـــه ويعود عليه بالنفع والغنم.

٥- **واستعينوا ببعضها بعض على**: وهذا دور الإنسان المـــدرك لطبيعة السنن والمدرك لأنه أهل لاستخلاف الله تعالى له، وجعلـــه سيدًا في هذا الكون؛ فهو بهذا الاستخلاف وتلك السيادة يملك بعقله الذي وهبه الله تعالى له توظيف بعض السنن ببعض، والاســـتعانة بها عليها حتى يكون مسخرًا لها ولا تكـــون هـــي مســـخرة لـــه، وساعتها سيكون من أهل النصر القريب والفتح المبين.

والأمة اليوم في أمس الحاجة إلى هذا الفكر الواعي الـــذي يقـــوم على التدبر في سنن الله تعالى وفقه التعامل معها، فـــإن كثيـــرًا مـــن أمراض أمتنا نشأت وترعرعت في ظل غياب الفهم الكامل لمضامين القرآن الكريم، والغيبوبة التي طالت عـــن مـــراد الله تعـــالى ونحـــن بتقصيرنا في هذا الجانب -جانب السنن الربانية وفقهها- نشارك فـــي رسم صورة سيئة عن الإسلام عند أعدائنا، فإنهم يربطون بين تخلفنـــا العلمي والحضاري والثقافي والمعيشي وبين ديننا، فيظلم هـــذا الـــدين

الجريح بهذه النظرة إليه، ولنا في صنع هذا الظلـــم لـــه نصـــيب أي نصيب.

إن من فهموا قوانين الله تعالى وسننه في خلقـــه اســـتطاعوا أن يحققوا سبقًا ويحرزوا نصرًا، ويصلوا إلى أهدافهم؛ فمؤمن آل فرعون استطاع أن يصل إلى ما يريد من خلال إرشاد قومه إلـــى ســـنن الله تعالى في الأنفس والآفاق، وأتت عبارته بهذه الدقة البالغـــة والبيـــان المعجز " **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ**"[1]." **مَنْ عَمِلَ سَـــيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُـــؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**"[2].

" **فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِـــيرٌ بِالْعِبَاد**"[3]، وجنود طالوت فهموا أيضًا سنن الله تعالى فقالوا: " **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُـــرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَـــاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّـــاسَ بَعْضَـــهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**"[4].

وإذا كان هؤلاء الفاهمون لسنن الله في الكون والـــنفس صـــدعوا

---

(١) غافر: ٣٤.
(٢) غافر: ٤٠.
(٣) غافر: ٤٤.
(٤) البقرة: ٢٤٩-٢٥١.

برأيهم وأظهروا فهمهم، فإن أمة تريد النصر وتسعى إليـــه لا بـــد أن تفهم هذه السنن وتنادي بفهمها حتى يعم النصر المـــؤمنين "**وَيَوْمَئِــذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**"([1]).

* * *

[1] - الروم:٤، ٥.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة مع السنن الربانية في لسان العرب ومضامين القرآن الكريم وأحاديث الرسول r نريد أن تختتم هذه الدراسة بنقاط نوجزها في الآتي:

أولا: اهتمام القرآن الكريم بالحديث عن السنن والقوانين التي تحكم سلوك البشر وتنظم حياتهم؛ حيث وردت لفظة السنن مفردة ومجموعة ثماني عشرة مرة، عدا ذكر السنن الفعلية؛ كسنة النصر والإهلاك والتسخير والأجل، والتداول الحضاري والإنذار والترف والمترفين والظلم والظالمين والمكر والماكرين، وقيام الحضارات واندثارها، والبقاء والفناء. وشكر النعم وكفرها، وسنة التغيير والصراع بين الحق والباطل والتمكين، والابتلاء والاستخلاف والتدرج والهداية والإضلال، والأسباب والمسببات والتزاوج والرزق.

ثانيا: مدى تقصير المسلمين في الدراسات التي تعنى بهذا الجانب من جوانب الفهم القرآني، وتوظيف هذه السنن والانتفاع بها، وقل من المسلمين من أفرد لهذه الجوانب حديثا يتناسب مع قيمتها وأهميتها،على الرغم أنها جانب من جوانب بناء الشخصية المسلمة؛ بل الشخصية الإنسانية يفوتها خير كثير بفقدان فهم هذه السنن والتعامل معها. وإذا كانت دراسة هذه السنن فريضة لأن القرآن دعا إلى فهمها وحسن التعامل

معها، فإنها ضرورة حياتية تحتمها وضعية البلاد المســلمة التي ارتبط فيها الفقر والمرض والجهل، ثالوث الدمار كمــا يسمى، ارتبط بهم على أنهم مسلمون، والحــق أن الإســلام برئ من هذا التردي الذي يعيشه المسلمون.

ثالثا: بان من خلال هذه الدراسة كذلك أن هنــاك آثــارا مــدمرة تترتب على إهمال التعامل مع سنن الله تعالى فــي الكــون، وهذا الإهمال الذي قد يصل إلى التأثير على جوانب الفكــر فتظهر مقولات ظالمة وأفكار غير متزنة، والسبب وراء ذلك عدم فهم السنن الربانية فهما قرآنيا.

رابعا: بان كذلك أن للسنن الربانية خصائص وصفات فهي مطردة شاملة عامة، لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول، وهي لا تحابي ولا تجامل، كما أنها لا تخالف المعجزة والخوارق. فهنــاك قوانين تحكم المعجزات وقوانين تحكم السنن الجاريــة فــلا تعارض ولا تنافر؛ بل كل في فلك يسبحون.

خامسا: كما أن هذه السنن مربوبة لله تعالى وخاضعة لأمره ونهيــه، فهي غير مستقلة ولا ثابتة الفعل؛ فالكون كله بقوانينه الكونية والربانية يخضع لمشيئة واحدة وإرادة قاهرة، وهي إرادة الله عز وجل.

سادسا: اتضح كذلك من خلال هذه الدراسة أن حجية السنن الربانية قاطعة ودلالاتها ثابتة، نظرا لكثرة الأمــر بالانتفــاع بهــا

والاستفادة منها.

سابعا: هناك علاقة وطيدة وعروة وثقى بين السنن الكونية أو نظام الله في الكون والسنن الربانية؛ أي نظـــام الله فـــي ســـلوك الإنسان.

ثامنا: هناك صيغ وردت عليها لفظة السنن فـــي القـــرآن الكـــريم مجموعة ومفردة ومضافة وموحدة بصور متعددة.

تاسعا: وردت السنن في مواطن وموارد بعينهـــا مثـــل: القصـــص القرآني، والمثل القرآني، والآيات الآمرة بالسير في الأرض والنظر في الكون، والتدبر في مصارع الغـــابرين ووقـــائع الماضين، كما كثر ورودها في الآيات التي يرتبط آخرهـــا بأولها ارتباط الشرط بالمشروط، والعلة بالمعلول، والســـبب بالمسبب.

عاشرا: اتضح كذلك من هذه الدراسة أن الإنسان يهيأ لإدراك السنن الربانية، ومن ذلك أن الله تعالى علمه الأسماء والمســـميات وحقائقها ووظائفها والانتفاع بها، وأن إدراك السنن الكونيـــة طريق من طرق إدراك السنن الربانية والتعرف عليها.

حادي عشر: أن الإنسان لا بد وأن يوظف هذه السنن ويفيد منها، وأن يوظفها ويحسن التعامل معها، وإلا كان آثما شرعا.

ثاني عشر: دعوة ملحة في أن يكون هذا الباب الخصب مـــن أبـــواب

الدراسات القرآنية محطا لأنظار العلماء وأقـــلام البـــاحثين؛ حتى تستطيع أن تنهض أمتنا على ضوء دســتورنا، وفـــي ظلال فهمنا لكتاب ربنا.

والله المستعان

أهم المصادر والمراجـــع

١- القرآن الكريم.

٢- إحياء علوم الدين،للإمام الغزالي، ط: عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

٣- أساس البلاغة،للإمام الزمخشري، ط: الهيئة المصـــرية العامـــة للكتاب، ط الثالثة ١٩٨٥م.

٤- أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، بتعليق السيد رشيد رضا، ط: محمد علـــى صـــبيح، ط السادســـة، ١٣٧٩هـــــ - ١٩٥٩م،.

٥- أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، بدون.

٦- الإمام محمد الغزالي وجهوده في التفســـير وعلـــوم القـــرآن، د. رمضان خميس الغريب، ط: دار الحـــرم للتـــراث، ط أولـــى، ٢٠٠٣م.

٧- الأمثال من الكتاب والسنة، للحكم الترمذي، تحقيق علـــى محمـــد البجاوي، ط: دار التراث، بدون.

٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبـــادي، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط الثالثـــة، ١٤١٦هـــــ، ١٩٩٦م،

٩- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور،ط: دار سحنون، بدون.

١٠- تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنـــار، السـيد رشـــيد

رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١٩٧٣م.

١١- تفسير القرآن العظيم، للإمام عماد الدين أبي الفداء بن كثير.
ط عيسى البابي الحلبي.

١٢- توحيد الخالق، للأستاذ الشيخ عبد المجيد الزنداني.
ط دار المجتمع، ط الثانية ١٤٠٧هـــ، ١٩٨٧م.

١٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام ابن جرير الطبـــري، ط: دار الريان للتراث ١٤٠٧هـــ - ١٩٨٧م،.

١٢- حتى يغيروا ما بأنفسهم، للأستاذ جـــودت ســـعيد ط مطبعـــة الحسين الجديدة، ط الثالثة، ١٣٩٧هـــ، ١٩٧٧م.

١٣- خلق الإنسان بين العلم والقرآن، د. عبد الفتاح طيرة ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.

١٤- روح المعاني، للإمام الألوسي ط دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٥هـــ- ١٩٩٤م.

١٥- السنن الإلهية في الأمم والجماعات، د. عبد الكريم زيدان، ط: الرسالة.

١٦- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، للمرحوم الشيخ محمـــد الصادق عرجون، ط: الدار السعودية، ط الثالثـــة ١٤٠٤هـــــ- ١٩٨٤م،.

١٧- شرح المقاصد، للعلامة سعد الدين التفتازاني، ط: دار الكتـــب العلمية، بيروت لبنان، ط أولى، ١٤٢٢هـــ، ٢٠٠١م.

١٨- الفلسفة القرآنية، للأستاذ العقاد، ط: دار الهلال، بدون تاريخ.

١٩- في ظلال القرآن، للشيخ سيد قطب رحمه الله، ط: دار الشروق، ط الرابعة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٢٠- قدر الدعوة، للأستاذ رفاعي سرور ط مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

٢١- القرآن والعلم الحديث، د/ منصور حسب النبي، ط:الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م.

٢٢- القرآن والعلم الحديث، للأستاذ عبد الرزاق نوفل، ط: دار الشعب، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢٣- القصص القرآني.. إيحاؤه ونفحاته، د/ فضل حسن عباس، ط: دار الفرقان، ط الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٢٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام جار الله الزمخشري، ط: مكتبة مصر.

٢٥- كيف نتعامل مع القرآن، للمرحوم الشيخ محمد الغزالي، ط: دار الوفاء، ط الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢٦- اللآلئ الحسان في علوم القرآن، للدكتور موسى شاهين لاشين، بدون تاريخ.

٢٧- لسان العرب لابن منظور، ط دار الفكر، ط أولى.

٢٨- الله يتجلى في عصر العلم، ط الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ط الرابعة، ١٩٨٦م.

٢٩- مباحث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطان، ط: مكتبة وهبة.

٣٠- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.

٣١- مجموعة الرسائل للإمام الشهيد حسن البنا، ط: دار الشهاب.

٣٢- محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٣٣- مدخل إلى دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم.. ، د/مجدي عاشور، سلسلة دراسات إسلامية، العدد ١١١، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤.

٣٤- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، للأستاذ عمرعبيد حسنة.

٣٥- المشروع الإسلامي لنهضة الأمة.. قراءة في فكر الإمام الشهيد حسن البنا، أ.د. عبد الحميد الغزالي، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، إعداد.

٣٦- مفاتيح الغيب للإمام الرازي.

٣٧- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ط: الأنجلو، بدون تاريخ،.

٣٨- مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم، بحث للدكتور صديق عبد العظيم أبي الحسن، ضمن مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثانية عشر، العدد الحادي والثلاثين، ذي القعدة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٩- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم

الزرقاني، ط دار إحياء الكتب العربية.

٤٠- الموسوعة القرآنية المتخصصة، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٤١- النظام الإلهي للرقي والانحطاط، لمحمد تقي الأميني، ط: دار الصحوة، ط أولى ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٤٢- نظم اللآلئ من حكم الغزالي، جمع وإعداد د/ رمضان خميس الغريب، ط: دار الحرم للتراث.

٤٣- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير.

* * *

فهرس الموضـــــوعات

* * *